السُّنَّة

ودورها فى الحفاظ على الوحده المنهجية للأمة

الدكتور

عبد الله شعبان على

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه ثقتي...

الحمد لله وصلى الله - تعالى - وسلم على سيدنا ومولانا رسول الله ، سيد الأولين والآخرين ، وصفوة الله من الخلق أجمعين .

﴿ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ { الأعراف : ٨٩ } .

وبعـــد ...

فإن موضوع "**السنة ودورها في الحفاظ على الوحدة المنهجية** " من الموضوعات الجديرة بالبحث والدراسة لا سيما في هـذا الوقـت بالذات ، وقت التيه ، والغربة ، والغربلة ... لماذا ؟ ليعرف كل مسلم موقعه ، وأين يضع قدمه ، و ليـدرك أن وحـدة المـنهج نعـم زاد الانطلاق ، وأن في السنة النبوية تغطية شاملة وافية لكـل متطلبـات الحياتين الدينية والدنيوية ، والمادية والمعنوية .

لذا كان مني إسهام حاولت من خلاله إبراز دور السنة فى وحدة الأمة ، وجمع شملها ، جمعًا على المنهج .

هذا الاسهام على ما به من نقص قد كتب الله له القبول ، ورؤية النور بعد إجازة أصحاب الفضيلة من لجنة التحكيم له .

ولما كان الموضوع واسعًا فقد بينت خطتي سلفًا على تجزئتـه ، فتكلمت في جزئه الأول عن أمرين :-

الأول : حرص السنة على استقلال الوحدة المنهجية للأمة .

وكان من محتواه : بيان أهمية المنهج ، خصائص الوحدة المنهجية ، مرتكزاتها ، وأهميتها .

الثاني : مظاهر عناية السنة بالوحدة المنهجية للأمة ، هذه العناية قامت وتقوم على عاملين هما :

أ- درء المفاسد " النواهي " .

ب- جلب المصالح " الأوامر "

في العامل الأول كان التأكيد على :

- رفض السنة للأفكار والثقافات الدخيلة على الإسلام وأهله .
- اجتناب أصحاب البدع والأهواء .
- البعد عن الأسباب الجالبة للاختلاف المذموم .
- التحذير من الجمود على الرأي الواحد وجحد ما عداه .
- ترك المراء والجدال .

وقد أبنت عن سبب تقديم عامل الدرء _ النواهي _ على غيره _ الجلب _ الأوامر.

كما أبنت عن دور علماء السنة من محدثين وحفاظ ، هذا الدور الريادي في الحفاظ على وحدة المنهج وقدسيته ، وهو أمر لا يستغرب منهم ، فهم معدنه ، وعلماء السنة هم رايات الخير ، وموازين العدل في كل زمان ومكان .

ومن باب تتميم الفائدة أكمل ما بدأته ، وفاءً بالعهد وإنجازًا للموعود ، فأعرض بالبحث والدراسة العامل الثاني " جلب المصالح " الأوامر .

والكلام فيه يدور حول جملة من الأوامر التي أكدت عليها السنة

النبوية .

هذه الأوامر كنت قد ذكرتها سلفًا على سبيل الإجمال ، وقد جاء وقت تفصيلها مع عدم الإخلال بمتطلبات البحث ، أو الخروج على قواعده وضوابطه .

هذا وأشير هنا إلى أنني لا أدعي أنى قد استقصيت جميع العوامل الواجب تركها ، ولا الواجب الأخذ بها ، فقد يوجد من هذا وذاك مما له صلته الأكيدة في توحد فكر الأمة ، وتعزيز الثقة بالمنهج، وكل ما يعيننا على الخلاص من الضياع والعودة الحميدة إلى الإسلام ، والأمل في الله كبير أن يعزم للأمة على الرشد ، فيعود لها وزنها وثقلها في الحياة وقيادتها كما كانت من قبل .

إنها أمة لن تموت إن شاء الله تعالى .

ولن يخزيها الله أبدا .

وكل هذه العوامل المثبطة لعزيمتها ، والمزالق المتلفة ذات إغراءات وإغوءات وتزيين وتزين ، وزخارف من القول وغرورًا ، جبانة ضعيفة تخشى يقظة المؤمن وصحوته وانتباهه .

ومما يعين على فك الأسر ، والخروج من القيد : أن يلزم المسلم نفسه بالعوامل الآتية :

إنها قيود إيجابية تلك التي تتعلق بتحقيق وتطبيق الأوامر والتي عليها مدار البحث .

هذه الأوامر من الواجب أن نندفع إليها برغبة وحب ، وأن ننزلها من نفوسنا إنزال السلف إياها في نفوسهم ، وأن تكون منا مزاحمة لهم كي لا يستأثروا بها دوننا .

وإلى القاريء الكريم التفصيل ...

(١) الحياة في ظلال الجماعة

تجديد عقد وعهد الولاء للطائفة المنصورة .

أو الإنتماء الكامل للفرقة الناجية فكرًا وسلوكًا، علمًا وتطبيقًا ، والتبرؤ مما عداها شكلًا ومضمونًا .

هذه الجماعة قد وردت بخصوصها جملة من الأحاديث التي بشرت بها عن عدد من الصحابة الكرام رضوان الله عليهم جميعًا .

وهذا كي لا نضل الطريق أو نجهل الغاية .

والملاحظ على هذه الأحاديث أنها قد ذكرت الفرقة الناجية عقب الكلام عن اختلاف الأمم السابقة من أهل الكتابين .

و أحيانًا يرد ذكر الاختلاف دون إشارة إلى الفرقة الناجية ، وهذا الأخير لا يضر ، ولا يغير من الواقع شيئًا ، فالأخبار الثابتة والوارد فيها ذكر الفرقة الناجية كثيرة ويكفي أن تكون معظم الروايات قد ذكرتها (١) .

على أنه قد جاء تعيين الفرقة الناجية المستثناه ، الغريبة ، المتفردة بين هذه الأهواء المتباينة المتناقضة ، هذا التعيين قد ورد بعبارات محددة ، بعدد من الصفات ، فلنذكرها ، ثم ننظر ما قرره السادة العلماء بخصوصها .

ومما يعيننا أكثر على بلوغ المقصود في عملية هذا التعين وتحديده وتأكيده ، ما ورد في السنة من وصف في مقابلها قد اتصفت

---

(١) تقدم في البحث الأول حديث الطائفة المنصورة ، الظاهرة على الحق ، وتخريج العلماء للحديث ، كذا حديث افتراق الأمة وتشعبها على ثلاث وسبعين فرقة ، كلها في النار إلا واحدة.

به الجماعة الهالكة .

إنه الضد الذي يظهر حسنة الضد .

وكما قيل :" وبضدها تتميز الأشياء "

هذا التميز مقصود وصولاً للمطلوب .

وتحت هذا الأمر يحسن التنبيه إلى أمور :

(أ) بعض النصوص الواردة في لزوم الجماعة .

(ب) تحديد السنة للجماعة الواحدة الواجب إتباعها ، وذلك بإبراز صفاتها وصفات المناقضين لها .

(ج) أهمية أن يعيش المرء داخل الجماعة " ثمار العيش في داخل الجماعة "

أكدت نصوص القرآن والسنة على أهمية أن يلزم المسلم نفسه الحياة في ظلال الجماعة ، وعدم مفارقتها ولو بقيد شبر ، وأن النصوص الواردة في ذلك قد بلغت حد الفريضة الشرعية والضرورة البشرية الاجتماعية .

فالجماعة أساس دعوة الإسلام وحركته ومظهر عبادته ، والمنهج القويم الذي سلكه الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام في تبليغ الإسلام ونقله إلى الآفاق .

كذلك هي الأسلوب الأمثل لمواجهة تكتلات قوى الشر والبغي والعدوان .

فطالما أن التكتلات هي سمة العالم الآن فلا بد من حركة موزونة كرد فعل لما نراه ...

دليل ذلك :

(١) الآيات الآمرة بالتعاون على البر والتقوى .

الآيات الآمرة بالاعتصام بحبل الله تعالى .

ما في القرآن من نهي عن التنازع والتفرق ، والتشيع والتحزب.

(٢) حديث القرآن عن الردة في أكثر من مكان وعن طبيعة الحال وحقيقته بين أهل الكفر والإسلام ، وكيف أن أهل الكفر لن يتركوا أهل الإسلام إذا ارتدوا عن إيمانهم ، ويشهد الواقع الآن بما تبذله دول الكفر من حرب الإسلام وأهله ، ثم تذكر الآيات صفات الجماعة المؤهلة لإنهاء هذه الحالة _، حالة الارتداد وإنهاء الواقع التسلطي العدواني لدول الكفر ، وقد وصفت الآيات الجماعة بأنها حزب الله ، الموعود بالنصر والتأييد ، هذا النصر الذي لا يتوقف على سبب مادي ، فهو نصر خاص .

قال الله تعالى : ﴿ **يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ** ﴾ .

{المائدة : ٥٤ – ٥٦ } .

وتشير الآية الأخيرة إلى أن حزب الله منهج ، واتجاه وتوجه ، له مظاهره التي تتمثل في استجماع أخلاقيات معينة ، والواجب الحتمي تعميق هذا الاتجاه .

(٣) وقد تضافرت نصوص السنة النبوية على وجوب لزوم الجماعة ، من ذلك :

قوله ﷺ " عليكم بالجماعة فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد ، من أراد بحبوحة الجنة فليزم الجماعة " (١) .

وقال ﷺ لحذيفة لما سأله : فما تأمرني ؟ قال " تلزم جماعة المسلمين وإمامهم " (٢) .

" إن الشيطان ذئب الإنسان ، كذلك الغنم ، يأخذ الشاة القاصية والناجية ، وإياكم والشعاب ، وعليكم بالجماعة والعامة " (٣) .

" من أتاكم وأمركم على رجل واحد يريد أن يشق عصاكم(٤) أو يفرق جماعتكم فاقتلوه " (٥) .

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في كتاب الفتن ، باب: ما جاء في لزوم الجماعة (٤٦٥/٤) من حديث عمر رضي الله عنه مرفوعًا ، قال أبو عيسى :" وهذا حديث حسن غريب من هذا الوجه "، والحاكم في المستدرك (١١٣/١) ، وقال : " صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه " ووافقه الذهبي .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ، مناقب (٢٢٤/٤) ، وفتن (٥٩/٩) ، ومسلم في صحيحه ، إمارة (١٤٧٧/٣) ، والبغوي في شرح السنة (٤٧/١٠) وقال هذا حديث متفق على صحته.

(٣) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد ، كتاب الخلافة (٢١٩/٥) ، من حديث معاذ بن جبل مرفوعًا ، وعزاه إلى أحمد والطبراني ، وقال رجال أحمد ثقات ، إلا أن العلاء بن زياد قيل : إنه لم يسمع من معاذ .

(٤) يشق عصاكم : يفرق جماعتكم كما تفرق العصا المشقوقة ، وهو عبارة عن اختلاف الكلمة وتنافر النفوس ، صحيح مسلم بشرح النووي (٤٨٤/٦) .

(٥) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه ، إمارة ، باب : حكم من فرق أمر المسلمين وهو مجتمع (١٤٨٠/٣) من حديث عرفجة بن شريح مرفوعًا .

" إنه ستكون هنات وهنات[١] فمن أراد أن يفرق هذه الأمة وهي جمع فاضربوه كائناً من كان " [٢]." -من فارق الجماعة شبرًا فقد خلع ربقة[٣] الإسلام من عنقه" [٤].

" من رأى من أميره شيئًا يكرهه فليصبر عليه ، فإن من فارق الجماعة شبرًا فمات إلا مات ميتة الجاهلية " [٥].

وقال ﷺ : " يد الله مع الجماعة " [٦] .

" الجماعة رحمة والفرقة عذاب " [٧] .

فهذه الأحاديث دالة بوضوح على ضرورة أن يكون المؤمن عضوًا عاملاً فاعلاً في جماعة المسلمين ، لما في لزوم الجماعة من

---

(١) الهنات في الأصل تطلق على كل شيء ، والمراد بها هنا : الفتن والشرور الحادثة والأمور العظيمة الشديدة ، النهاية في غريب الحديث (٢٧٩/٥) .

(٢) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه ، إمارة (١٤٧٩/٣) ، وأبو داود في سننه كتاب السنة (٢٤٢/٤) ، وأحمد في مسنده (٣٤١/٤) جميعًا من حديث عرفجة بن شريح ، مرفوعًا .

(٣) الربقة : ما يوضع في عنق البهيمة أو يدها لتمسكها ، ثم استعير للإسلام ، النهاية (١٩٠/٢)

(٤) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب السنة (٢٤١/٤) من حديث أبي ذر مرفوعًا بهذا اللفظ.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الفتن (٥٩/٩) ، ومسلم في صحيحه ، إمارة (١٤٧٧/٣) ، والحاكم في المستدرك ، كتاب الإيمان (٧٧/١) من حديث ابن عمر ، وقال : حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي ، والبغوي في شرح السنة (٤٧/١٠) وقال : هذا حديث متفق على صحته .

(٦) أخرجه الترمذي في سننه (٤٦٦/٤) ، وقال : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه لا نعرفه من حديث ابن عباس إلا من هذا الوجه ، والنسائي في سننه (٩٢/٧) من حديث عرفجة ابن شريح .

(٧) أخرجه أحمد في مسنده (٢٨٧/٤) ، وأورده الألباني في الصحيحة (٢٧٦/٢) .

خير وفير في الدنيا ، وبحبوحة العيش في الجنة ، ولما يترتب على الفردية والعزلة والتفرق ، والتشتت من ذل وهوان في الدنيا وعذاب في الآخرة .

وبنظرة سريعة في محتوى النصوص النبوية السابقة نلحظ:

- تكرار الإلزام بالجماعة .
- وصف الجماعة بانها جماعة المسلمين ، كما في حديث حذيفة رضي الله عنه ، والأمر بلزومها ولزوم إمامها ، وهذه أكمل الحالات .

وفي حديث حذيفة كذلك أن المرء لو لم يجد إلا أحد أمرين – الجماعة أو الإمام – وجب عليه لزومه.

فإن لم يجد شيئًا – الحالة الرابعة – فليصب حظه من العزلة .

" فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام ؟".

قال " فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك " .

– إن الجماعة هي الإسلام كله والمنهج كله ، والإسلام هو الجماعة ، ولا أدل من ذلك على أن مفارقتها قدر شبر _ هذه المسافة القليلة التي هي بحساب المسافات ما بين طرفي الإبهام والخنصر بالتفريج المعتاد _ خلع وانفلات من تعاليم الإسلام وتحلل منها ، كما تخلع البهيمة الطوق والحبل من عنقها .

وفي حديث افتراق الأمة ، والإخبار عن هلاك الفرق ونجاة فرقة واحدة منها .

" قالوا: من هي يا رسول الله ؟ قال: ما أنا عليه وأصحابي " (١).

والذي عليه رسول الله ﷺ وصحابته الكرام دين كامل وشريعة كاملة .

وفي بعض طرق الحديث ، قيل : يا رسول الله من هم ؟ قال " الجماعة " (٢).

" وهي الجماعة " (٣)

" كلها في النار إلا السواد الأعظم " (٤) .

وفي هذا تفسير لقوله ﷺ " ما أنا عليه وأصحابي " .

كما أن الموت مع الانخلاع عن الجماعة والتحلل منها نذير شؤم بسوء الخاتمة .

فقد نصت الأحاديث على الميتة الجاهلية .

قال الحافظ : " المراد بالميتة الجاهلية _ وهي بكسر الميم _ حالة الميتة كموت أهل الجاهلية على ضلال وليس له إمام مطاع ؛ لأنهم كانوا لا يعرفون ذلك ، وليس المراد أنه يموت كافرًا بل إنه يموت مثل موت الجاهلي وإن لم يكن هو جاهليًا ، وأن ذلك ورد

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) أخرجه بن ماجة في سننه ، فتن (١٣٢٢/٢) ، وابن أبي عاصم في السنة (٢٢/١) ، وابن حجر في المطالب العالية ٣ / ٨٧ من حديث عوف وأنس بإسناد حسن .

(٣) أخرجه ابن ماجة في سننه فتن ٢ / ١٣٢٢ ، وابن أبي عاصم في السنة ١ / ٣٢ ، بسند ضعيف إلا أن الشواهد تحسنه .

(٤) ابن أبي عاصم في السنة (٣٤/١) ، والبيهقي في السنن الكبرى (١٨٨/٨) ، وابن حجر في المطالب العالية (٨٦/٣) والحديث في سنده " قطن بن إبراهيم مجهول إلا أنه لم ينفرد به ، بل وله متابعات تقويه .

مورد الزجر والتنفير ، وظاهره غير مراد ، ويؤيد أن المراد بالجاهلية التشبيه قوله في الحديث الآخر :

" من فارق الجماعة شبرًا فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه " (١) .

وعندي أنه يجب إجراء النصوص على ظاهرها ، فذلك مقتضى الأدب ، ولا سيما ما خرج مخرج الزجر والتنفير ، لأنها إذا أولت خرجت عن مراد الشارع منها ، والله أعلم .

- عدم التهاون مع من يضعف هيبة الجماعة ، أو أن يعمل على تفريق الصف أو ينال من وحدة الأمة ، والتعامل معه بحسم وحزم على مستوى جرمه وخطره ، وما يحدثه من فرقة وفوضى، كائنًا من كان.

- هي أساس دعوة الإسلام ومنطلقه ، والمنهج القويم الذي سلكه الرسول ﷺ في بناء دولته والتمكين لشريعته ، وهذا ظاهر في طبيعة الرسالة ، ظاهر في شرائع الإسلام ، ظاهر في خطاب الوحي .

ومن كان مقتديًا بالنبي _ صلى الله عليه وسلم _ فهذا هو الطريق .

هذه الجادة ... فأين السالكون ؟

أما أن الجماعة كمسلك دعوي هي المتفقة وطبيعة الرسالة ، فالرسالة لا ينهض بها ، أو يقوم بأعبائها إلا الجماعة _ الطائفة _ الكافة ، الأمة ... في كل زمان ومكان .

فهي رسالة عالمية ، والنبي ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين ومقتضى هذا أن يكون لها بيان مناسب من حيث الكم والكيف مع حاجة العالم إلى رسالة الإسلام .

---

(١) فتح الباري (٧/١٣) .

ذلك أن الناس جميعًا مخاطبون بها ، مطالبون أن يعملوا بأحكامها ، وينزلوا على حكمها .

قال ﷺ : " وكان النبي يبعث إلى قومه خاصةً وبعثت للناس عامة " (١).

لذا فقد كان من النبي ﷺ حرص على أن ينحاز إلى الناس ، وأن ينحاز الناس إليه ، وفي سبيل ذلك كان يبحث عنهم في أماكن تجمعاتهم ويعرض نفسه ، ويعرض دعوته عليهم ، وما زال بهم حتى هيأ الله - تعالى - له من آمن به .

" ألا رجل يحملني إلى قومه لأبلغ رسالة ربي ، فإن قريشًا منعوني أن أبلغ رسالة ربي " (٢) .

قال الله تعالى :

﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ ﴾ { آل عمران : ١٠٤ } .

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا﴾ { النساء : ٧١ } .

﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، تيمم (٩١/١) ، وصلاة (١١٩/١) ، وخمس (١٠٤/٤) ، ومسلم في صحيحه ، مساجد (٣٧٠/٢) ، والترمذي في سننه ، سير(١٢٣/٤) ، وأحمد في مسنده (٤١١/٢) من حديث جمع من الصحابة .

(٢) أخرجه أبو داود في سننه ، سنة (١٠٣/٥) ، والترمذي في سننه ، فضائل القرآن (١٨٤/٥) ، وابن ماجه في سننه ، مقدمة (٧٣/١) ، وأحمد في مسنده (٣٢٢/٣) جميعًا من حديث جابر بن عبد الله ، قال أبو عيسى " هذا حديث حسن غريب ".

يَحْذَرُونَ ﴾ {التوبة : ١٢٢ } .

وكون الجماعة ظاهرة عامة في شرائع الإسلام وتشريعاته ، فما من شك في أن جملة كبيرة منها إنما يؤديها المسلم بشكل جماعي ، وهذا ظاهر في العبادات ، وإن أمكن تأديتها بشكل فردي إلا أنه قد حبب إليهم الجماعة وأكد عليها .

واعتبر ذلك بالصلاة ... والذكر وقراءة القرآن ، وطلب العلم .

وفي الحديث : " وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه فيما بينهم إلا حفتهم الملائكة ونزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وذكرهم الله فيمن عنده " (١) .

كذا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله...

حتى إقامة الحدود فقد أمر الله أن يشهدها طائفة من المؤمنين قال الله تعالى : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ النور / ٢ .

وأكثر من هذا فقد حرص النبي _ صلى الله عليه وسلم _ على اجتماع الناس في الشكل والمظهر ، والجلوس والمشي حتى في الأكل وأخبر أن" يد الله مع الجماعة ، وأنها رحمة " (٢).

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الذكر (٢٠٧٤/٤) ، وأبو داود في سننه ، صلاة (٢٣٦/١) ، والترمذي في سننه ، قراءات (١٩٥/٥) ، وابن ماجه في سننه ، مقدمة (٨٢/١) ، وأدب (١٢٤٥/٢) ، وأحمد في مسنده (١٥٢/٢) من حديث أبي هريرة وأبي سعيد .

(٢) تقدم تخريجه قريبًا .

وقال :- " طعام الواحد يكفي الاثنين ، وطعام الاثنين يكفي الأربعة ، وطعام الأربعة يكفي الثمانية " (١) .

ولما رأى أصحابه يومًا يجلسون متفرقين ناداهم : " اجتمعوا فاجتمعوا " يقول راوي الحديث " فلو بسط عليهم ثوبه لوسعهم " (٢) .

وكون الجماعة هي لغة الخطاب فهذا ظاهر نداءات وأوامر ، ونواهي القرآن والسنة . إذ يغلب عليها طابع العموم والشمول .

قال الله تعالى :

﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ { المائدة : ٢ } .

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِه وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾

{ آل عمران : ١٠٢ – ١٠٣ } .

﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾

{ التوبة : ٤١ } .

﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه ، أطعمة (٩٢/٨) ، ومسلم في صحيحه ، أشربة (٦٣٠/٣) ، والترمذي في سننه (١٠٠/٢) ، واحمد في مسنده (٢٠٧/٢) ، وابن حبان في صحيحه كما في الإحسان (٣٣١/٧) ، والبغوي في شرح السنة (٣٢٠/١١) جميعًا من حديث جابر وأبي هريرة .

(٢) أخرجه أبو داود في سننه ، جهاد (٤١/٣) ، وأحمد في مسنده (١٩٣/٤) كلاهما من حديث أبي ثعلبة مرفوعًا .

الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ { الحج : ٧٨ } .

حتى آيات الدعاء والطلب من الله – سبحانه – في القرآن لم تكن فردية ولو كان الداعي فردًا ، بل صدرت بصيغة الجمع ، وتأمل: ﴿**اهدنا الصراط المستقيم** ﴾ وما تحمله " نا " الدالة على الفاعلين مع أن الطلب قد صدر من فرد واحد ، وهكذا كل ما في القرآن من دعاء ﴿**رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾ { آل عمران : ١٩١ } .

وأخيرًا فإن النصوص من القرآن والسنة دالة بوضوح على وجوب أن يحيا المسلم عضوًا عاملاً في جماعة المسلمين .

فالحياة في جماعة المسلمين من فرائض الشرع ، وضرورات الحياة ، وسنة كونية خاصةً في ظل التكتلات العالمية .

لكن أي جماعة تلك التي يلزم المسلم نفسه بالحياة معها ، خاصةً في ظل الفوضى التي يعاني منها الإسلام والمسلمون الآن ؟

وهنا لابد من تحديد الجماعة وبيان ما ورد فيها من صفات ، سواء منها ما ثبت نصًا فيها ، أو ثبت نصًا في مقابلها من الخارجين عليها .

– وقد جاءت السنة النبوية بتعيين الفرقة الناجية _ استثناء من الفرق الهالكة _ فرق الاختلاف والتناقض تلك التي مآلها النار .

" كلها في النار إلا واحدة " .

إذًا هذا التعيين والتحديد قاطع .

فإذا أخذنا في الاعتبار عدد الفرق الهالكة ، وبيان حتمية افتراق الأمة ، وأن السنة لم تحدد وقتًا زمنيًا لتوقف ظهور الفرق الهالكة ،

وأنه من الجائز جدًا ظهور فرق الآن وبعد الآن ، فلا يعلم الغيب إلا الله تعالى .

كان هذا يحتم على أصحاب الفقه العملي ، والبصر الناقد العناية التامة بمعرفة الفرقة الناجية طلبًا للنجاة ، ودرءًا للوقوع في مقابلها ، ولا سيما وأن هذا المقابل كثير . ، هذه الكثرة تغري القلب فيتورط ، أو يقع في المزالق المتلفة .

إذًا من الواجب على علماء الأمة أن يكشفوا عن صفات الفرقة الناجية ، أن لا يهملوا بيان خصائصها والدعوة إلى التمسك بها .

عندها ستظهر بوضوح صفات الفرق الهالكة وهذا الأمر أيضًا لا يجوز إهماله .

قال الله تعالى : ﴿ **وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ** ﴾ { الأنعام : ٥٥ } .

إلا أن هذا الأخير إنما تعين لأنه سبيل إلى الأول ، وسبب للإستقامة على الجادة .

ومن حديث حذيفة المتقدم : (كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير ، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني "

عرفت الشر لا لشر ولكن لتوقيه

ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه

ـ تحديد الصفات

١- تقدم بعضها في جوابات النبي ﷺ لما قالوا له ما هي ؟ ، من هم ؟

قال : " ما أنا عليه وأصحابي " .

" الجماعة " .

" هي الجماعة " .

" السواد الأعظم " .

ويلاحظ في الوصف ، وسبب النجاة ، اتباع الحق ولزوم المنهج، وصدق التوجه.

فالجماعة من يجتمعون على الشيء .

والجماعة ما وافق الحق .

وقد أورد السادة العلماء في تحديد معنى الجماعة أقوالاً:

- أنها السواد الأعظم من أهل الإسلام [1] ويدخل فيها : مجتهدوا الأمة وعلماؤها ، وأهل الشريعة العاملون بها ومن سواهم داخلون في حكمهم ؛ لأنهم تابعون لهم مقتدون بهم .
- أنها جماعة العلماء المجتهدين ، فمن خرج عما عليه علماء الأمة مات ميتة جاهلية ؛ لأن جماعة العلماء جعلهم الله حجة على العالمين .

وممن قال بهذا من الأئمة : البخاري ، وعبد الله بن المبارك،

---

(١) فتح الباري (٣٧/١٣) .

واسحاق بن راهويه ، وجماعة من السلف ، وهو رأى الأصولين ، فقد قيل لعبد الله بن المبارك ، من الجماعة التي ينبغي أن نقتدي بهم ؟

قال : أبو بكر وعمر ، فلم يزل يحسب حتى انتهى إلى الحسين بن واقد [١] .

فقيل " هؤلاء ماتوا ، فمن الأحياء ؟

قال: أبو حمزة السكري [٢].

وعند الترمذي في سننه : وتفسير الجماعة عند أهل العلم هم أهل الفقه ، والعلم والحديث .

ونقل كلام ابن المبارك ثم قال : " وأبو حمزة هو محمد بن ميمون المروزي وكان شيخًا صالحًا ، وإنما قال هذا في حياته عندنا " [٣] .

الجماعة : هم الصحابة ، وهو موافق لقوله ﷺ " ما أنا عليه و أصحابي " [٤].

فإنهم هم الذين أقاموا الدين وشيدوا بنيانه .

الجماعة : جماعة أهل الإسلام إذا اجتمعوا إلى أمر فواجب

---

(١) الحسين بن واقد ، قاضي مرو وشيخها ، أبو عبد الله القرشي " ت ١٥٧ هـ" له ترجمة في : طبقات ابن سعد (٣٧١/٧) ، الجرح والتعديل (٦٦/٣) ، سير أعلام النبلاء (١٤/٧) .

(٢) أبو حمزة : محمد بن ميمون المروزي ، العالم الحجة " ت ١٦٧ هـ " له ترجمة في: طبقات ابن سعد (٣٧٣/٧) ، والجرح والتعديل (٨١/٨) ، تاريخ بغداد (١٦٦/٣) ، سير أعلام النبلاء (٣٨٧/٧).

(٣) سنن الترمذي (٤٦٧/٤) ، وتذكرة الحفاظ (١/ ٢٣٠) .

(٤) الاعتصام (٢٦٢/٢) .

على غيرهم من أهل الملل إتباعهم ، وهم الذين ضمن الله لنبيه عليه الصلاة والسلام أن لا يجمعهم على ضلالة .

ولعل وجهة نظر من قال بهذا راجعة إلى معنى : من تحقق به فهو الجماعة حتى ولو كانوا أفرادًا .

وهو مذهب من يقول : الجماعة ما وافق الحق .

قال الإمام الشافعي ﷺ : " الجماعة لا تكون فيها غفلة عن كتاب الله ، ولا سنة ، ولا قياس ، وإنما تكون الغفلة في الفرقة " [١].

وقال ابن مسعود ﷺ : " إن جمهور الجماعة الذين فارقوا الجماعة ، الجماعة ما وافق الحق ولو كنت وحدك "

" إن جمهور الناس فارقوا الجماعة ، وإن الجماعة ما وافق طاعة الله عز وجل ".

وقال نعيم بن حماد [٢]: " يعني إذا فسدت الجماعة فعليك بما كانت عليه قبل أن تفسد وإن كنت وحدك ، فإنك أنت الجماعة حينئذ" [٣] .

- إن الجماعة هي جماعة المسلمين إذا اجتمعوا على أمير يحكم بالكتاب والسنة .

- قال الشاطبي :" فهذا خمسة أقوال دائرة على اعتبار أهل السنة

---

(١) الاعتصام (٢٥٨/٢-٢٦٥) ، فتح الباري (٣٧/١٣) .

(٢) نعيم بن حماد بن معاوية بن الحارث ، الإمام الحافظ العلامة " ت ٢٢٩ هـ " له ترجمة في : طبقات ابن سعد (٥١٩/٧) ، والجرح والتعديل (٤٦٢/٨) ، وتذكرة الحفاظ (٤١٨/٢) ، وسير أعلام النبلاء (٥٩٥/١٠) ، وميزان الاعتدال (٢٦٧/٤)، وتهذيب التهذيب (٤٥٨/١٠) .

(٣) إغاثة اللهفان (٦٩/١) .

والاتباع وأنهن المرادون بالحديث " [١] .

ويلاحظ مابين الجماعة وما ورد في تفسيرها ، وما بين السواد الأعظم من صلة ، كما يلاحظ أن الجماعة قد فسرت كذلك بالسواد الأعظم ، وقد حقق الله المعنى في أفراد هم الجماعة ، والسواد الأعظم، ومنهم : محمد بن أسلم الطوسي [٢] .

ذلك أن إسحاق بن راهويه سئل عن السواد الأعظم ؟ فقال : محمد بن أسلم الطوسي ، وأصحابه ، ومن تبعه ، ثم قال : " لم أسمع منذ خمسين سنة أشد تمسكاً بأثر النبي _ صلى الله عليه وسلم _ من محمد بن أسلم [٣] .

قال ابن القيم : " وصدق ؟ فإن العصر إن كان فيه عارف بالسنة ، داع إليها فهو الحجة ، وهو الإجماع ، وهو السواد الأعظم ، وهو سبيل المؤمنين التي من فارقها واتبع سواها ولاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيرا " [٤] .

ومن تتبع سيرة ابن أسلم وجده كما وصف ركن من أركان الدين ، صاحب بصر واتباع للأثر ، وزهد في الدنيا ، وفصاحة بالقرآن والنحو .

والأمر اللافت للنظر حقًا : أن المشترك بين الأقوال المتقدمة هو : لزوم الحق واتباعه ، والإستقامة على الأثر ، والبصر بالدين ،

---

(١) الاعتصام (٢/٢٥٨-٢٦٥) ، فتح الباري (١٣/٣٧) .

(٢) محمد بن أسلم الطوسي ، الإمام الرباني " ١٨٠-٢٤٢ هـ" له ترجمة في : الحلية (٩/٢٣٨) ، سير أعلام النبلاء(١٢/١٩٦) ، وإغاثة اللهفان (١/٦٩).

(٣) الحلية (٩/٢٣٨) ، وسير أعلام النبلاء (١٢/١٩٦) ، إغاثة اللهفان (١/٦٩) .

(٤) إغاثة اللهفان (١/٦٩) .

والزهد في الدنيا ، والقيام بالحق ، والثبات عليه ، والصبر على ذلك حتى الممات .

كذلك بإمكان كل فرد أن يكون جماعة ، أمة ، السواد الأعظم ، وهو فرد وسبيله الكون على ما كانت عليه الجماعة ، فحيث جاء الأمر بلزوم الجماعة فالمراد لزوم الحق واتباعه وإن كان المتمسك به قليلًا والمخالف له كثيرًا .

إذ أن مفتاح كون الواحد جماعة : أن يكون على الحق قائما ، وبالحق عاملا ، وللحق حارسا .

قال الله تعالى ﴿ **إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ {النحل : ١٢٠ } .

وهو فرد ، فتمثل سيرته ، واستوعب الدرس ، وتأمل كلامه يوم قال : " ياسارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك " (١) .

كرر هذه الكلمات ورددها . وتأمل المغزى ، وكن وريث خليل الرحمن ، واطلب ونادي بنداء عباد الرحمن : ﴿ **وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا** ﴾ { الفرقان : ٧٤ } .

قاد ة في الخير ، ودعاة هدي يؤتم بنا .

أئمة نقتدي بمن قبلنا ، ويقتدي بنا من بعدنا .

أو المعنى : واجعلنا أئمة ليهتدى بنا ، ولا تجعلنا أئمة ضلالة .

وقيل : " ليس المراد أن نؤم الناس ، وإنما أرادوا اجعلنا أئمة في الحلال والحرام يقتدى بنا فيه " (٢) .

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، أنبياء (١٧/٤) ، وأحمد في مسنده (٤٠٤/٢) .

(٢) فتح الباري (٢٥١/١٣) .

ومن لطيف ما يحكى : أن ابن مسعود ﷺ قرأ " إن معاذاً كان أمة قانتاً لله حنيفاً " فقال له فروة بن نوفل : " إن إبراهيم ، فأعادها ثم قال : " إن الأمة : معلم الناس الخير ، والقانت : المطيع ، وإن معاذاً – رضي الله عنه – كان كذلك " .

ولما قيل له : " يا أبا عبد الرحمن نسيتها ؟ قال : " لا ولكننا كنا نشبهه بإبراهيم" (١)

وأخيراً ... فإن إنزال الجماعة والسواد الأعظم على أفراد يجعل الآمال تتجدد ، واليأس يتلاشى ، والظلام يتبدد .

وإن كانوا أفراداً ، غرباء فقد صحت البشارة النبوية ببقائهم واستمرارهم ، وفيه إيذان بكونك جماعة ، وأن باستطاعة كل فرد أن يكون هو الجماعة بالاستمساك بالحق ، لا بمعنى أن تتعدد الجماعات بتعدد الأفراد ، وإنما المعنى أنه عند قلة النصير واستحكام الغربة ، كن أنت الجماعة والسواد الأعظم ، فإن العارف بالحق ، المستمسك بالسنة هو الجماعة ، والإجماع ، وهو سبيل المؤمنين .

(٢) ورد وصف الفرق الهالكة – وقد أبنت عن المغزى من ذكره ومنه ما تقدم ، فقد وصفهم بزيغ القلوب ، واتباع المتشابه من الكتاب والسنة طلباً للفتنة وابتغاء التأويل وقد ثبت تحذير النبي ﷺ منهم .

وبمفهوم المخالفة ، فإن سلامة القلب من الزيغ ، وسلامته من اتباع المتشابه من الكتاب من سمات أهل النجاة .

كما وصفت الفرق الهالكة باختلاط الأهواء بها .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١ / ٤٥١ .

أخرج أبو داود من طريق عبد الله بن لحيٍّ قال : حججنا مع معاوية بن أبي سفيان ، فلما قدمنا مكة ، قام حين صلى صلاة الظهر ، فقال : " إن رسول الله ﷺ قال : "إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة ، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة – يعني : الأهواء – كلها في النار إلا واحدة، وهي الجماعة وإنه سيخرج في أمتي أقوام تجارى بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكلب [١] بصاحبه ، لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله" .

والله يا معشر العرب لئن لم تقوموا بما جاء به نبيكم صلى الله عليه وسلم لغيركم من الناس أحرى أن لا يقوم به " [٢]

وهو يوضح سلامة الفرق الناجية من الأهواء كذلك .

من ثمار الحياة في ظلال الجماعة :

للجماعة دور كبير في إنماء وتزكية الخير ، وصدق التوجه ، وتعزيز الصلة بالأفراد ، وتقويتها بالله – تعالى – يظهر هذا في :

- ❖ وقاية الفرد من الشطط والانحراف الفكري والخلقي والزلل والضلال بكل أشكاله ومظاهره ، فالجماعة حق ، وماذا بعد الحق إلا الضلال ؟

---

(١) الكلب – بالتحريك – داء يعرض للإنسان من عض الكلب الكلب ، فيصيبه شبه الجنون وتعرض له أعراض رديئة ، ولا يشرب الماء حتى يموت عطشاً ، النهاية في غريب الحديث ٤ / ١٩٥ .

(٢) أخرجه أبو داود في سننه ، كتاب السنة ٤ / ١٩٨ ، والدارمي في سننه ، جهاد ٢ / ١٥٨ ، وأحمد في مسنده ٤ / ١٢٠ ، واللفظ له ، والحاكم في المستدرك ، علم ١ / ١٢٨ ، وقال : " هذه أسانيد تقام بها الحجة في تصحيح هذا الحديث " ووافقه الذهبي وابن أبي عاصم في السنة ١ / ٧ ، ٣٣ .

- مساعدة الفرد المسلم على تفجير طاقاته ومواهبه ، وتوظيفها، كذا اكتشاف شخصيته وما تنطوي عليه من كمال أو نقص ، قوة أو ضعف ، خير أو شر ، صدق أو كذب ، شدة أو لين ، حب أو بغض ...

" المؤمن مرآة المؤمن ، والمؤمن أخو المؤمن يكف عليه ضيعته، ويحوطه من ورائه " [١] .

هي إذا طريق معرفة المؤمن لعيوبه ومواطن القصور فيه ، ومن ثم التخلص من العيوب ، وتوظيف سائر الطاقات ، وإعمال كل الغرائز بشكل منضبط في شخصيته المسلم من قصور أو عوج .

- تزويد الفرد المسلم بكثير من الخبرات والتجارب النافعة المفيدة التي تعينه على مواجهة ما يعترض طريقه من صعاب وعقبات .
- بث الأمل في نفس المسلم ودفع حالات اليأس عنه .
- تجديد نشاط المسلم بما يجدد عزيمته ، ويعلي همته ، ويضاعف من جهده .
- الظفر بالعون والتأييد الإلهي .
- حفظ الهيبة والكرامة .
- الإعانة على تأدية الواجب والقيام به [٢] .
- ويكفي أن يكون من خيراتها وقاية المسلم من تلاعب

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه ، أدب ٤ / ٢٨٠ ، والبخاري في الأدب المفرد / ١٠٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – مرفوعاً .

(٢) انظر : توجيهات على الطرق ٢ / ٤ – ١٩ بتصرف كبير والكتاب لشيخي صاحب الفضيلة أ . د / سيد محمد نوح ، أطال الله عمره ومتعه بكل خير .

الشيطان به – فهو مع الواحد ، ومن الإثنين أبعد ، وهكذا كلما زاد العدد .

- ❖ الفوز بالجنة ، وتلك ثمرة لا يزهد فيها إلا مجنون . ولو لم يكن للجماعة من خير سواها لكفى .
- ❖ امتثال أوامر الشرع واجتناب نواهيه ، فقد أمر الشرع بها، ونهى عن ضدها ، بل ما اهتم الشرع بشيء اهتمامه بالجماعة ووحدة الأمة .

بل لقد بالغ الرسول ﷺ فنهى عن كل ما من شأنه أن يفرق بين أبناء الأمة ، ولو كانا اثنين فقط ، فقد ورد في السنة : "لا يحل للرجل أن يفرق بين اثنين إلا بإذنهما" (١) .

قال محي السنة الإمام البغوي (٢) : " وهذا يتأول على وجهين :

أحدهما : أن يأتي حلقة قوم فيتخطى رقابهم ويقعد وسطها ، ولا يقعد حيث ينتهي به المجلس .

والثاني : أن يقعد وسط الحلقة فيحول بين الوجوه ، ويحجب بعضهم عن بعض فيضررون (٣) .

وإذا النهي في الحديث وارد في هذا الأمر وهو مما يعده الناس هيناً ، إلا أن النهي قد ورد بخصوصه ، وأخذ منه إنزاله على ما هو

---

(١) أخرجه أبو داود وفي سننه ، أدب ٤ / ٢٦٢ ، والترمذي في سننه ، أدب ٥ / ٨٩ ، وقال " هذا حديث حسن صحيح " وأحمد في مسنده ٢ / ٢١٣ ، والبغوي في شرح السنة ١٢ / ٣٠٠ جميعاً من حديث عبدالله بن عمر ، مرفوعاً .

(٢) البغوي : الحسن بن مسعود محمد ، صاحب التصانيف المفيدة " ٤٣٣ – ٥١٦ هـ " له ترجمة في : وفيات الأعيان ٢ / ١٣٦ ، سير أعلام النبلاء ١٩ / ٤٣٩ ، تذكرة الحفاظ ٤ / ٢٥٧ ، طبقات الداودي ١ / ١٥٧ .

(٣) شرح السنة ١٢ / ٣٠٠ .

أكبر منه ، ومن ثم تدخل سائر الافتراقات بمختلف أشكالها وصورها بدءا من التفريق بين الاثنين ، ولأقل مسافة " قيد شبر " وفي الأمور المادية والمعنوية وصولاً بالجماعة إلى أعلى صورها ، وأسمى معانيها .

ويتأكد هذا كله عندما ينال أحد من وحدة الأمة الفكرية والمنهجية، ويعمل على إضعافها ، والحديث السابق وإن أوله البغوي على التفريق البدني ، المحس إلا أنه يمكن تعميمه وإنزاله على الأمور الخاصة بالمنهج وتألف القلوب ، وتوحيد المشاعر والأحاسيس .

وعندي أن هذا أولى ، وله سنده في اللغة والقرآن .

فالمفارقة أعم من أن تكون بالبدن ، وأنها كما تشمل مفارقة البدن تشمل كذلك مفارقة الرأي والكلام ، وإلى هذا يشير وضع الكلمة في اللغة والاشتقاق .

كذلك استعمالات القرآن لمادة " فرق " وما جرى به العرف فيما يعده الناس تفرقاً ، فإذا قالوا : تفرق الناس كان المقصود التفرق بالأبدان ، ويعمل ما عداه من التفرق في الرأي والكلام .

بل لقد ورد التفرق في نصوص الشرع بمعنى التفرق في الأقوال فقط دون احتمال التفرق بالأبدان [١] .

قال الله – تعالى : ﴿ **وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ**﴾ {البينة : ٤ } .

حتى إن الإمام مالكاً قال : " ليس للتفرق حد محدود يعلم " [٢] .

---

(١) انظر : المغني لابن قدامة ٣ / ٥٦٤ .

(٢) موطأ مالك / ٤٦٦ ، معالم السنن ٥ / ٩٥ .

وإن كان الأصل عادة الناس وعرفهم زماناً ومكاناً .

قال الإمام الخطابي – رحمه الله تعالى – تعليقاً على حديث " من فارق الجماعة شبراً " .

" من خرج عن طاعة الجماعة وفارقهم في الأمر المجمع عليه فقد ضل وهلك وكان كالدابة إذا خلعت الربقة التي هي محفوظة بها فإنها لا يؤمن عليها عند ذلك الهلاك والضياع " [١] .

فقوله : في الأمر المجمع عليه ، إضافة بعد يقوى لدى المسلم أن التفرق والمفارقة أعم من كونها بالبدن فقط ، وأن الخطابي ذهب إليه قد توسع في المعنى ليشمل التفرق في الرأي والاختلاف في وجهات النظر .

وأضاف ابن الأثير [٢] بعداً جديداً حين قال : " مفارقة الجماعة ترك السنة ، واتباع البدعة " [٣] .

هذا البعد إنما يساعد على ترسيخ هذا المفهوم .

إن الإسلام لا يحمل الناس على تجمعات بدنية وهي موزعة القلوب ، مشتتة التوجيهات ، والأرواح ، والعقول .

ثم إن النصوص الواردة في هذا إنما يغلب عليها طابع العموم فهي قابلة لأن يندرج تحتها كل لون من ألوان التفرق العضوي والمعنوي ، وحملها على المعنوي أولى .

---

(١) معالم السنن ٧ / ١٤٨ .

(٢) المبارك بن محمد بن عبدالكريم " ٥٤٤ – ٦٠٦ هـ " له ترجمة في : وفيات الأعيان ١٤١/٤ ، سير أعلام النبلاء ٢١ / ٤٨٨ ، التكملة لوفيات النقلة ٢ / ١٩١ .

(٣) النهاية في غريب الحديث ٢ / ١٩٠ .

❁ تنبيه ...

أ – لقد دار جدل واسع حول مصير الفرق الهالكة ، لا سيما وقد حكم الرسول ﷺ عليها بأنها في النار .

هل يعني هذا أنها كافرة ؟ وأنها مخلدة في النار ؟ أم أنها دائرة بين حالات الفسق والضلال دون الوصول إلى حكم بتكفيرها وإخراجها من الملة ؟

والثابت في حديث افتراق الأمة أنه لا دلالة فيه على تكفير الفرق ، وإن أثبت لها النار ، إلا أن الوعيد بالنار لا يدل على الكفر كما لا يدل على التخليد في النار .

وقد كادت هذه المسألة أن تكون أشد إشكالاً لدى العلماء من أهل الكلام .

وإلى علماء السنة يرجع الفضل في بحثها شافياً وافياً ، فقد استفاضوا في تناولها ضمن المسائل الخارمة لعدالة الرواة ، وما يعبرون عنه بالسلامة من أسباب الفسق وخوارم المروءة ، وموقفهم بالتالي من رواية أصحاب البدع والأهواء ، ومدخل البدع في الجرح والتعديل .

والذي يظهر من مجموع كلام الأئمة :

(١) أن الفرق الهالكة واقعة في دائرة البدع العظمى ، وما هي عليه ضرب من المعاصي ، والمعاصي معفورة مقهورة بفضل الله ما لم تبلغ درجة الإشراك بالله – تعالى .

عقد البخاري في صحيحه باباً : المعاصي من أمر الجاهلية ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك لقوله ﷺ : " إنك امرؤ فيك

جاهلية " [١] وقول الله : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ** ﴾ {النساء : ١١٦} .

قال الحافظ ابن حجر : " إن كل معصية تؤخذ من ترك واجب أو فعل محرم فهي من أخلاق الجاهلية ، والشرك أكبر المعاصي ولهذا استثناه ومحصل الترجمة أنه لما قدم أن المعاصي يطلق عليها " الكفر " مجازاً على إرادة كفر النعمة لا كفر الجحد أراد أن يبين أنه كفر لا يخرج عن الملة ... " [٢] .

فما سوى الشرك وإن أطلق عليه كفر لا يخرج عن الملة ، وصاحبه ضمن دائرة الغفران ...

كما قد يطلق على شخص معين أن فيه جاهلية – حالة نفسية تعني رفض التحاكم إلى شرع الله تعالى – فهي تقابل الإسلام أو هي فترة زمنية تقابل الإسلام ، ومع هذا فليس خارجاً بذلك عن الملة .

(٢) قال العلامة الشاطبي : " اختلفت الأمة في تكفير هؤلاء أصحاب البدع العظمى ، ولكن الذي يقوى في النظر وبحسب الأثر عدم القطع بتكفيرهم ، والدليل عليه عمل السلف الصالح فيهم .

ألا ترى إلى صنيع عليٍّ فيهم ، وكونه عاملهم في قتالهم معاملة أهل الإسلام على مقتضى قول الله تعالى :

﴿ **وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا** ﴾

{ الحجرات : ٩} .

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، إيمان ١ / ١٤ ، وأدب ٨ / ١٩ ، ومسلم في صحيحه إيمان ٣ / ١٢٨٢، وأبو داود في سننه ، أدب ٣/ ٢٤٠ ، وأحمد في مسنده ٥/ ١٦١ .

(٢) فتح الباري ١ / ٨٥ .

ولما فارقت الحرورية الجماعة لم يهاجمهم ولا فارقهم .

ولما ظهر معبد الجهني [١] وغيره من أهل القدر كف السلف عنهم ولم يكن إلا الطرد والهجران .

ومن ناحية المعنى فإنهم لم يتبعوا الهوى بإطلاق ، فإنهم مصدقون للشريعة متبعون للدليل لكن مع ممازجة الهوى .

وأيضاً فقد ظهر اتحاد القصد مع أهل السنة على مطلب واحد وهو الانتساب للشريعة ، وقد يعرض الدليل على أحدهم فيرجع ويظهر الوفاق [٢] .

(٣) وقال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – : " من قال إن الثنتين والسبعين فرقة كل واحد منهم يكفر كفراً ينقل عن الملة فقد خالف الكتاب والسنة وإجماع الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، بل وإجماع الأئمة الأربعة ، وغير الأربعة ، فليس فيهم من كفر واحدًا من الثنتين والسبعين فرقة وإنما يكفر بعضهم بعضا ببعض المقالات " [٣] .

(٤) وقال الخطابي : " أجمع علماء المسلمين على أن الخوارج مع ضلالهم فرقة من فرق المسلمين وأجازوا مناكحتهم ، وأكل ذبائحهم ، وأنهم لا يكفرون ما داموا متمسكين بأصل الإسلام " .

(٥) وقال الإمام الغزالي : " ينبغي الاحتراز عن التكفير ما وجد إليه سبيلاً ؛ فإن استباحة دماء المسلمين المقرين بالتوحيد خطأ ،

---

(١) معبد الجهني : تابعي صدوق في نفسه ، إلا أنه قد سن سنة سيئة بكلامه في القدر . له ترجمة في : ميزان الاعتدال ٤ / ١٤١ .

(٢) الاعتصام ٢ / ١٨٥ – ١٨٩ بتصرف .

(٣) مجموع الفتاوى ٧ / ٢١٧ .

والخطأ في ترك ألف كافر في الحياة أهون من الخطأ في سفك دم مسلم واحد " [١] .

والثابت عن الأئمة لا سيما شيخ الإسلام ابن تيمية في ذلك كثير يطول نقله ، **وفي هذا القدر كفاية تنتهي بالآتي :**

- ❖ أن الكفر حكم شرعي ، ولابد وأن يكون متفقاً عليه بين جميع الأئمة ، كما في غلاة الروافض من دعوى بعضهم الحلول ، أو الإيمان بالرجعة لعلي ﷺ إلى الدنيا ، وكذا من أنكر معلوماً من الدين بالضرورة ، أو اعتقد عكسه ...
- ❖ أن العلماء قد فرقوا بين البدع وحال أصحابها ، وهذا مقتضى الإنصاف ، فمجموع الفرق وجملة أهلها من المسلمين ، وهو ما تؤيده النصوص ، ودل عليه عمل السلف الصالح رضي الله عنهم .

ـ فقد كان ابن عمر ﷺ يصلي خلف الخوارج ، ولم يزل السلف والخلف يصلون خلف المعتزلة وغيرهم ومناكحتهم وإجراء أحكام الإسلام عليهم .

ـ علي ﷺ وغيره لم يكفروا الخوارج الذي قاتلوهم ، بل عندما خرجوا عليه قال لهم : " إن لكم علينا أن لا نمنعكم من مساجدنا ، ولا نمنعكم حقكم من الفيء ... وأرسل إليهم ابن عباس لينـاظرهم فرجع نحو النصف منهم ، ثم قاتل من بقي ، ومع هذا فلم يسب لهم ذرية ، ولا سار فيهم سيرة الصحابة في المرتدين ، ولم ينكر عليه ذلك أحد ... [٢] .

---

(١) نيل الأوطار ٧ / ٣٥٢ .

(٢) انظر : جامع بيان العلم وفضله ٢ / ١٠٤ .

بل لما سئل عن الحرورية - أهل النهروان [١] .

أمشركون هم ؟ قال : من الشرك فروا .

أمنافقون هم ؟ قال : إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلا .

قيل : فما هم ؟ قال : إخواننا بغوا علينا " [٢] .

وأهل النهروان قد استفاضت الأحاديث في ذمهم والأمر بقتالهم ، وهم يكفرون عليا وعثمان ومن تولاهما .

❖ الوعيد الشديد لا يخرج أحداً من الملة ، هذا أصل تجب مراعاته ، وكثير من المنتسبين إلى أهل السنة فيهم بدع من جنس بدع الآخرين ، ويجمع بين جميع الفرق أن فيهم من ليسوا كفاراً ولا مؤمنين ، هم ضلال وعصاة ، وإن قال النبي صلى الله عليه وسلم : "كلها في النار إلا واحدة" فليس أعظم من قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ {النساء : ١٠} .

﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ {النساء : ٣٠} .

وأمثال ذلك من النصوص الصريحة بدخول من فعل ذلك النار .

ومع هذا فلا نحكم لمعين بالنار لإمكان أنه تاب ، أوله حسنات محت سيئاته ، أو كفَّر الله سيئاته بأنواع من البلاء ...

---

(١) النهروان : بقعة واسعة بين بغداد وواسط من الجانب الشرقي ، عندها كانت واقعة أمير المؤمنين على مع الخوارج - معجم البلدان ٥ / ٣٢٤ .

(٢) السنن الكبرى ٧ / ١٧٣ .

❖ إن القول قد يكون كفراً ولا يلزم منه كفر قائلـــه ذلـــك أن القائل به قد يكون بحيث لم يبلغه الخطاب ، أو كان حديث عهد بالإسلام ، أو نشأ ببادية بعيدة لم تبلغه شرائعه ، فهذا لا يحكم بكفره .

لهذا كله ... كان القول الصحيح إن شاء الله تعـــالى أن جملـــة أصحاب هذه الفرق من المسلمين .

٢- الاعتصام بحبل الله . تعالى :

العودة إلى الأمر الأول .

أو تأمير الكتاب والسنة والتسليم لهما ، وتقييد كل أمر بهما إذ لا عصمة لأحد إلا فيهما ، أو إجماع عليهما .

قال الله تعالى : ﴿ **يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا** ﴾ آل عمران :{ ١٠٢ - ١٠٣ } .

﴿ **فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ** ﴾ {الزخرف ٤٣ - ٤٤} .

معنى الحبل :

في اللغة السبب الذي يوصل إلى البغية والحاجة .

والحبل : الرباط ، وكل ما يتوصل به إلى شيء فهو الوصال والتواصل .

والحبل : العهد والذمة والأمان ، وهو مثل الجوار والميثاق .

والحبل : مصدر حبلت الصيد ، واحتبلته ، إذا نصبت له حبالة فنشب فيها وأخذته [١] .

قال الراغب : " وحبل الله الذي معه التوصل به إليه من القرآن والعقل وغير ذلك ، مما إذا اعتصمت به أوالك إلى جواره " [٢] .

قال ابن مسعود : " وحبل الله القرآن ، ومعنى قوله : " عليكم

---

(١) انظر : لسان العرب ١١ / ١٣٤ - ١٤١ .

(٢) المفردات / ١٠٧ .

بحبل الله ، فإنه كتاب الله " أي عليكم بكتاب الله وترك الفرقة ، فإنه أمان لكم ، وعهد من عذاب الله وعقابه [١] .

ومعنى الاعتصام : العصمة والمنعة .

وحبل الله على هذا : القرآن ، أو الدين ، او السبب .

قال الحافظ : " والمراد بحبل الله : الكتاب والسنة على سبيل الاستعارة والجامع كونهما سبباً للمقصود ، وهو الثواب والنجاة من العذاب ، كما أن الحبل سبب لحصول المقصود من السقي وغيره" [٢].

وفسر الاعتصام بحبل الله ، بترك الفرقة ولزوم الجماعة .

قال ابن المبارك [٣] :

إن الجماعة حبل الله فاعتصموا

منه بعروته الوثقى لمن دانا [٤]

ولا غرابة ، فإنه معنى يناسب ما ورد في تحديد صفات الفرقة الناجية كما تقدم .

هذا والقرآن والسنة بالمكانة التي لا تخفي على أحد .

وهما معاً المصدران الشرعيان المتفق عليهما .

وهما معاً يشكلان وحدة منهجية واحدة .

---

(١) لسان العرب ١١ / ١٣٥ ، تفسير القرطبي ٢ / ١٤٠١ .

(٢) فتح الباري ١٣ / ٢٤٥ .

(٣) عبد الله بن المبارك بن واضح ، الإمام شيخ الإسلام " ١٢٨ -- ١٨١ هـ " له ترجمة في : حلية الأولياء ٨ / ١٦٢ ، تاريخ بغداد ١٠ / ١٥٢ ، طبقات الشيرازي / ٩٤ ، وفيات الأعيان ٣ / ٣٢ ، سير أعلام النبلاء ٨ / ٣٧٨ ، تذكرة الحفاظ ١ / ١٧٤ .

(٤) أورده أبو نعيم في الحلية ٨ / ١٦٤ ، ضمن قصيدة طويلة ، والذهبي في سير أعلام النبلاء ٨ / ٤١٤ .

وهما أصل الدين الإسلامي ، وقوامه الثابت المتين القويم .

وهما معا متلازمان من حيث كونهما وحياً معصوماً ، ومن حيث جهة التلقي والمصدر ، ومن حيث وجوب تبليغهما إلى الناس جميعاً ، ومن حيث وجوب طاعتهما والالتزام بهما ، والرد عند التنازع إليهما.

قال الله – تعالى : ﴿ **يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً** ﴾ {النساء : ٥٩} .

فأمر ربنا وأوجب علينا الرد إليه – إلى قرآنه ، وإلى نبيه – صلى الله عليه وسلم – حال حياته ، وإلى سنته بعد وفاته ، فوجب الرد إليهما ، وتقييد كل أمر بهما ، وصياغة الحياة الفردية والجماعية بشكل منتظم دائم على منوالهما ، ففيهما تبيان وتفصيل كل شيء .

قال تعالى: ﴿ **وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ** ﴾ {النحل : ٨٩ } .

وجعل مهمة النبي ﷺ التبيين .

قال الله تعالى : ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ {النمل : ٤٤} .

فدل على أن المهمة واحدة .

وللقرآن والسنة من السمات المميزة ما لا يحصي ، كما أن لهما من الآثار الطيبة ، والفعالة على الفرد والمجتمع ما لا يعد .

يكفي أن يكون منها :

❁ أن في اتباعهما ولزوم طريقهما عصمة من كل خطأ ، أو

زلل ، أو انحراف ، قال الله تعالى : ﴿ **وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** ﴾ { آل عمران : ١٠١ } .

وقال الله تعالى : ﴿ **وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ** ﴾ .

{الشورى : ٥٢ ، ٥٣} .

لذا فقد استودع النبي ﷺ الأمة أمرهما فقال : "يا أيها الناس ! إني قد تركت فيكم ما إن تمسكتم به فلن تضلوا أبداً ... كتاب الله ، وأنتم تسئلون عني ؟ فماذا أنتم قائلون ؟ " (١) .

وهو معنى قوله تعالى : ﴿ **فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ** ﴾

{الزخرف : ٤٣ ، ٤٤} .

فمن علم أنه مسئول أعد للسؤال جواباً ، وللجواب صواباً .

وفي قصة بني إسرائيل وذلهم إلى آخر الدنيا وانقضائها ، قال الله تعالى : ﴿ **ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ** ﴾ {آل عمران : ١١٢} .

فهم لم يعتصموا ، ولو اعتصموا لم يكن ذل ولا مسكنة .

أو المعنى : إلا أن يعتصموا فأضمر ذلك .

واستبعد أبو العباس أحمد بن يحي (٢) أن تحذف أن مع بقاء

---

(١) الحديث تقدم تخريجه في البحث الأول .

(٢) أبو العباس أحمد بن يحيى بن يزيد – صاحب الفصيح والتصانيف " ٢٠٠ – ٢٩١ هـ " له ترجمة في : تاريخ بغداد ٥ / ٢٠٤ ، وفيات الأعيان ١ / ٢٠٢ ، تذكرة الحفاظ ٢ / ٦٦٦ ، سير أعلام النبلاء ١٤ / ٥ .

صلتها ، وقال : المعنى إن شاء الله ضربت عليهم الذلة أينما تقفوا بكل مكان إلا بموضع حبل من الله ، وهو استثناء متصل ، كما تقول ضربت عليهم الذلة في الأمكنة إلا في هذا المكان .

قال الأزهري [١] والقول ما قال أبو العباس [٢] .

فانظر ما ترتب على ترك الأخذ بحبل الله تعالى ...

ونحن كغيرنا يجري علينا ما جرى على الأمم قبلنا ...

إذاً لا عصمة للفرد ولا للأمة إلا فيهما ، أو في أمر قائم عليهما، لدوامهما وخلودهما وعصمتهما .

فكل سطر وحرف إلى زوال إلا ما كان منهما ، أو مقتبساً منهما، وكل أمر ينقصه الثبات والاستقرار ، وتعتريه الهزات والرجرجة إلا ما كان منهما ، وتوالد البدع والحادثات المستمر سببه وأساسه تغييب القرآن والسنة ، والإعراض عنهما.

فاتق الله ؟ ؟ ولا تجعل كلامه منك بظهر ، وقلة اكتراث منك بفهم ما قال ، فإن الله سبحانه يجل من أجل كلامه ويعظم عنده من عظم كلامه .

قال الله تعالى : ﴿ **فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ..... الآيات** ﴾ {طه : ١٢٣ – ١٢٤}.

هم لازم ، وتعب دائم ، وحسرة لا تنقضي .

---

(١) الأزهري : محمد بن أحمد بن الأزهر ، عالم اللغة " ت ٣٧٠ هـ " له ترجمة في اللباب ١ / ٤٨ ، وفيات الأعيان ٤ / ٣٣٤ ، سير أعلام النبلاء ١٦ / ٣١٥ ، شذرات الذهب ٣ / ٧٢ .

(٢) لسان العرب ١١ / ١٣٧ .

كما تكفل ربنا لمن قرأ القرآن وعمل به أن لا يضل في الـدنيا ، ولا يشقى في الآخرة .

❁ وأن يكون في اتباعهما والأخذ بهما كمال الحياة والنور .

فالقرآن والسنة منهج حياة .

والأمة بدونهما موتى أو أشباه موتى .

وانتقياد الأمة لهما مشرق فجر جديد في الفكر والسلوك .

والحديث عن خصائص وسمات الوحي المحمدي يطول ، ويكفي أن الله سبحانه سماه " روحا " وما سماه الله روحاً إلا لأن الله قد أحيـا به القلوب الميتة والنفوس العليلة ، فالروح أصل الحياة .

﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنْ الْمُنذِرِينَ ﴾ { الشعراء : ١٩٣ : ١٩٤ } .

﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّـتَ الَّـذِينَ آمَنُـوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ { النحل : ١٠٢ } .

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَـابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَـا وَإِنَّـكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِـي السَّـمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ ﴾ { الشورى : ٥٢ ، ٥٣}.

لذا فالوحي المحمدي لازم لكيان الناس جميعاً المعنـوي لـزوم الماء والهواء لكيانهم المادي ، بل أشد .

ولأن الماء أصل الحياة المادي فقد وقع تشبيه الوحي به بجـامع الإحياء في كل ، فالماء مادة الحياة ، والوحي كذلك .

قال الله تعالى : ﴿ أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ..... الآية ﴾

{ الرعد : ١٧ } .

﴿ وَأَنزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا * لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا .....﴾

{ الفرقان : ٤٨ ، ٤٩ } .

وأجمعت الأمة على أن وصف طهور خاص بالماء ، لا يتعداه إلى غيره من المائعات ، وأنه من أجل نعم الله على خلقه ، ومما امتن به عليهم وجميع هذا له ارتباط بالوحي ومن الأوجه الجامعة بين الوحي والماء .

وفي حديث أبي موسى عن النبي ﷺ قال : "إن مثل ما بعثني الله عز وجل من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ... " (١) .

والغيث : الحيا النازل من السماء .

وفي اختياره من بين أسماء المطر دليل على شدة الحاجة والاضطرار إليه .

قال الله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ { الشورى : ٢٨ } .

ومع الحياة : نور فكما أن الوحي حياة ، فإنه كذلك نور .

والنور منه المادي ، والمعنوي .

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، علم ١ / ٣٠ ، ومسلم في صحيحه ، فضائل ٤ / ١٧٨٧ وأحمد في مسنده ٤ / ٣٩٩ ، والبغوي في شرح السنة ١ / ١٨٧ .

ما يرى بالبصر ، وما يدرك البصيرة .

قال الله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا ﴾ { الشورى : ٥٢ } .

﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ { التغابن : ٨ } .

﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ﴾ { الأنعام : ١٢٢ }.

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ { الحديد : ٢٨ } .

﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ ﴾ { المائدة : ١٥ ، ١٦ } .

﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ { الأعراف : ١٥٧ } .

هذه الخاصية – الحياة والنور – أصل كل خير وصلاح وفلاح للإنسان في دنياه وفي أخراه .

بالحياة تكون القوة .

وبالنور تظهر الأشياء على حقائقها .

مع هذا فقد غابت عن الكثير منا . وصار الاهتمام أكثر ببيان أوجه أخرى من الخصائص ، أو الإعجاز اللغوي والبياني .

وما أحد يبيح لنفسه الفصل بين هذا وذاك فالكل من عند الله .

بيد أنه من الحتميات أن يكون الاهتمام البالغ بخاصية الحياة والنور .

فالأمة أحوج ما تكون إليهما ، لا سيما في هذه الأيام ، تلك التي ركدت فيها الأمة ، واختلطت عليها الأمور ، وانعدمت الرؤية .

هذه النظرة وهذا التأمل تجعلنا نتعامل مع الوحي على أساس من اعتبارهما بحق أصل الحياة – القوة ، والنور – رؤية الأشياء على حقائقها .

كما تجعلنا نحتال لإيجاد صلة وثيقة بين روح الوحي والروح التي بين ضلوعنا ، وأنوار الوحي ، ونور قلوبنا وأبصارنا فنستمد العزم والقوة ، ونطرد الضعف والعمى .

إن من الواجب أن تتم دراستنا للقرآن والسنة على أنهما حياة ونور .

وأن تأخذ هذه الدراسة منا كل اهتمام .

❁ كما أن في اتباعهما والاعتصام بهما وقاية للأمة من الابتداع، وغني عن استيراد الأفكار والثقافات من هنا أو هناك .

وبالتالي الاتحاد في الفكر والتوجه ، فطالما أن المصدر واحد فإن الائتلاف قائم ، والاختلاف منتف .

فما يتنازع الناس إلا عندما تتعدد مصادر التوجيه وتتنوع .

ولعل هذا هو سر النهي عن التفرق بعد الأمر بالاعتصام بحبل الله .

ففي الاعتصام به كفاية وغنى ، ووقاية وترابط ، فإذا استسلم

الناس لله ولرسوله - صلى الله عليه وسلم - انتقى السبب الرئيسي للنزاع بينهم .

إن مقاومة البدع أن نأخذ المبتدعين بالسنن .

قال أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه : " سيأتي أقوام يجادلونكم بشبهات القرآن فخذوهم بالسنن ، فإن أصحاب السنن أعلم بكتاب الله عز وجل " (١) .

وقال أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز : " سن رسول الله صلى الله عليه وسلم وولاة الأمر من بعده سناً الأخذ بها اعتصام بكتاب الله، وقوة على دين الله ، ليس لأحد تبديلها ، ولا تغييرها ، ولا النظر في أمر خالفها ، من اهتدى فهو المهتدي ، ومن استنصر بها فهو المنصور ، ومن تركها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيرا " (٢) .

لهذا يجب على الأمة بأسرها العمل في اتجاهين متلازمين .

نشر القرآن والسنة وتعليمهما على نطاق واسع ، وأن تتولى ذلك جهات متخصصة .

أن يأخذ الجانب العملي التطبيقي حقه ، فتتشكل حياة الفرد والمجتمع على أساس من القرآن والسنة .

هذا الجانبان النظري والتطبيقي يساعدان على استقرار فكر الأمة، ووحدتها المنهجية ، ومن ثم رفض كل مظاهر الخلل والتنازع ومقاومتها مقاومة جادة فاعلة

---

(١) سنن الدارمي ١ / ٤٩ .

(٢) جامع العلوم والحكم / ٢٥٠ .

❁ ثم إن الاعتصام بها تحقيق لأمر الله وامتثال له ، وفي هـذا من الخير الكثير .

وقد جاء الأمر باتباعهما في غير آية ونص نبوي .

قال الله تعالى :

﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ { الأعراف : ٣ } .

كما أمر ربنا بتدبر آياته : ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴾ { ص : ٢٩ } .

وجعل اتباعه اتباعاً للطريق والأهدى ، والأعلم والأقوى .

كما أمر ربنا بأخذ كل ما جاءنا به الرسول صلى الله عليه وسلم مأخذ الجد والافتقار والعمل والتطبيق .

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾

{ الحشر : ٧ } .

هكذا بإطلاق ، ولم يقل وما آتاكم الرسول من طاعتي أو من كتابي ...

وألزمنا ربنا طاعة نبيه ﷺ وقرن ربنا طاعته بطاعة الرسول الكريم ﷺ في كثير من آي القرآن .

وهذا من فضائله ﷺ كما فرض طاعته على العالم فرضاً ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ { النساء : ٥٩ } .

بل لقد أخذ الله الميثاق على جميع أنبيائه إن جاءهم رسول آمنوا به ، ونصروه ، فلم يكن ليدرك أحد منهم نبياً محمداً – صلى الله عليه وسلم – إلا وجب عليه الإيمان به ، والنصرة له ، فجعلهم ربنا أتباعا له يلزمهم الانقياد له والطاعة .

بل إن الإيمان بالله تعالى لا يكمل ما لم تكن طاعة وحسن انقياد وتسليم للنبي ﷺ .

قال الإمام المطلبي – الشافعي – رحمه الله : " وضع الله رسوله من دينه وفرضه وكتابه الموضع الذي أبان جل ثناؤه أن جعله علما لدينه بما افترض من طاعته ، وحرم من معصيته ، وأبان من فضائله بما قرن من الإيمان برسوله مع الإيمان به ، فجعل كمال ابتداء الإيمان الذي ما سواه تبع له ، الإيمان بالله ، ثم الإيمان برسوله " .

وكل ما سن فقد ألزمنا اتباعه وجعل من اتباعه طاعته ، وفي العنود عن اتباعها معصيته التي لم يعذر بها خلقاً ، ولم يجعل له من اتباع سنن رسول الله مخرجاً[١]

الأخذ بالسنة عصمة ونجاة .

قال ابن شهاب [٢] : " كان من مضى من أسلافنا يقولون : الاعتصام بالسنة نجاة ، والعلم يقبض سريعا فنعش العلم الدين والدنيا ، وذهاب العلم ذهاب ذلك كله " [٣] .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : " عليكم بسنتي ... " [٤] .

"تركت فيكم ما إن تمسكتم به – اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا :

---

(١) الرسالة / ٨٧ – ٨٠ .

(٢) محمد بن مسلم بن شهاب الزهري " ٥٠ – ١٢٤ هـ " له ترجمة في : طبقات الشيرازي / ٦٣ ، وفيات الأعيان ٤ / ١٧٧ ، تذكرة الحفاظ ١ / ١٠٨ ، سير أعلام النبلاء ٥ / ٣٢٦ ، تهذيب ٩ / ٤٤٥ .

(٣) سنن الدارمي ١ / ٤٥ ، مجموع الفتاوى ١١ / ٦٢٣ .

(٤) جزء من حديث أخرجه أبو داود في سننه ٤ / ٢٠١ ، والترمي في سننه ، علم ٥ / ٤٤ ، حديث حسن صحيح ، وابن ماجه في سننه ، مقدمة ١ / ١٥ ، والدارمي في سننه ١/ ٤٤، وأحمد في مسنده ٤/ ١٢٦، ١٢٧ جميعاً من حديث العرباض بن سارية.

كتاب الله وسنتي " [١] .

فوجب الاحتكام إليها وضبط كل أمر بضوابطها والسنن قوارب نجاة .

وأمر الناس في خير وصلاح ما داموا على الأثر ، وما دام فيهم من يطلب الحديث .

كان الأعمش [٢] يقول : " عليكم بملازمة السنة وعلموها للأطفال ؛ فإنهم يحفظون للناس دينهم إذا جاء وقتهم " [٣] .

وقال الإمام أحمد : " من ترك حديث رسول الله ﷺ فهو على شفا هلكة " .

وقال : " ما أعلم الناس في زمان أحوج منهم إلى طلب الحديث من هذا الزمان " .

فقال له أحد أصحابه " ولم ؟

قال : " ظهرت البدع فمن لم يكن عنده حديث وقع فيها " [٤] .

إن السنة إنما جعلت عصمة ليستن بها ، ويقتصر عليها ، فقد سنها من قد علم ما في خلافها والإعراض عنها من الزلل .

فوجب أن نرتضي لأنفسنا ما رضيه الرسول الكريم لنفسه وما رضيته لنا .

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ / ٦٤٨ ، والحاكم في المستدرك ١ / ٩٣ ، وصححه وأقره الذهبي، وابن عبدالبر في جامع بيان العلم ٢/ ١٨٠، والسيوطي في مفتاح الجنة/ ١٢.

(٢) سليمان بن مهران " ٦١ هـ - ١٤٥ هـ " له ترجمة في : طبقات ابن سعد ٦ / ٣٤٢ ، تاريخ بغداد ٩ / ٣ .

(٣) الميزان الكبرى ١ / ٥٧ .

(٤) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي / ١٨٢ - ١٨٣ .

وتشتد الحاجة إلى السنة مع تقادم الزمان وظهور البدع عنـــدها يجب أن نعود إلى الأمر الأول . الكتاب والسنة إذ لا عصمة لأحد إلا فيهما ، أو في أمر مقيس عليهما ، أو في إجماع العلماء علـــى أمـــر مستمد منهما .

هذا وقد صاحب نزول الوحي الإلهي أمور هي :

العلم التام ، الرحمة الواسعة ، الحكمة البالغة ، الخير والبركة ، انتفاء الاختلاف والتناقص فيه ، الحق الثابت .

ويشهد لكل أمر من هذه الأمور آيات وأحاديث كثيرة .

وبالله تعالى التوفيق

٣ - وجوب إحياء فقه الدعوة :

أو العمل بقاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

أو تكوين رأي عام حر ، تكون مهمته :

ـ حراسة الدين ، وإحياء آدابه وأحكامه في النفوس .

ـ إكساب الأمة من الاعتبار والشخصية والسلطان ما هو أقوى من القوة ، وأنفذ من القانون .

ـ تمكين الأمة من مقاومة الجاهلية ، وإقلاعها من الجذور ، والضغط عليها ، فإما تدخل في دين الله - تعالى وتعود بالتالي إلى قواعدها الربانية ، وإما أن تزول إلى غير رجعة ، فإن لم يكن هذا فلا أقل من تحجيم شرها ، وتضييق مجالاتها ، والخناق عليها ، وحسم مواد شرها وإمدادها حتى تموت ، وتجفيف منابعها حتى تنتهي ، فإن بقيت كان عنيها أن تفكر ألف مرة قبل الإقدام على إعلان خطتها والكشف عن وجهها القبيح .

قال الله تعالى : ﴿ **وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتْ الأَرْضُ** ﴾ { سورة البقرة : ٢٥١ } .

﴿ **وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ** ﴾ { الحج : ٤٠ } .

تعريف الدعوة ومعنى إحياء فقهها :

الدعوة في أبسط معانيها هي الدين الإسلامي كله ، ودعوة الناس إليه ، وحدثهم على الإقبال عليه باتباع أوامره واجتناب نواهيه .

ذاك أن الدعوة ليست مقتصرة على مجرد التعريف ، بل إنما

تتعداه إلى عمليات إزالة الركام الهائل من أنقاض الجاهلية ، وبناء وتكوين مجتمع إسلامي حضاري مكانها .

لذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله تعالى : " إن الدعوة إلى الله هي الدعوة إلى الإيمان بما جاءت رسله بتصديقهم فيما أخبروا به ، وطاعتهم فيما أمروا " (١).

فقد اشتمل كلام شيخ الإسلام على الإسلام كله .

ففيه انشغال بالخلق ودلالتهم على الحق ، ورفع رايات للخير ، والعمل على تكميل الناس جميعاً به ، مع ما في هذا من عناء ومعاناة، والصبر على أذاهم ، وحثهم على الخير وترك الشر .

وإحياء فقهها ...

التحرك بالدعوة والعمل على الترويج لها ، وإسماع الناس مضامينها ، والوصول بها إلى أن لا يكون للناس ، هم بالليل والنهار إلا بها ، فتتملك مشاعرهم ، ومن ثم تسيطر عليهم سيطرة كاملة ، فتشيع بالتالي وتصبح هي لغة الخطاب السائد ، والضابط الحاكم لتصرفات الناس ، والقانون الفاعل المنظم لأمورهم ، وشئونهم .

باختصار أن يتنفس الناس الدعوة ، ويعيشوا في أجوائها الصحيحة فتكون منطلق حياتهم ، وميزان سلوكياتهم .

معنى المعروف والأمر ...

المعروف : اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال ، والأفعال الظاهرة والباطنة .

---

(١) مجموع الفتاوى ١٥ / ١٥٧ .

وسبب تسميته معروفاً : أن الفطر الصحيحة المستقيمة ، والعقول السلمية تعرفه وتشهد بخيره وصلاحه .

ومعنى الأمر به ، الدعوة إلى فعله والإتيان به ، مع الترغيب فيه ، والحث عليه ، وتمهيد أسبابه وسبله بصورة تثبت أركانه ، وتوطد دعائمه ، وتجعله السمة العامة للحياة جميعاً .

قال ابن الأثير : " المعروف : اسم جامع لكل ما عرف من طاعة الله، والتقرب إليه والإحسان إلى الناس، وكل ما ندب إليه الشرع ونهى عنه من المحسنات والمقبحات والمنكر عكسه [١].

وهذا المعنى الشامل للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يدخل فيه الدين كله ، إذ أن الدين أمر ونهي .

ويلاحظ ما بين بين مفهوم كلمة " دعوة ومعروف " من تلازم وترابط وثيق ، حيث إنهما متشابكان في الغاية ، وفي المفهوم .

فهما معا يحبهما الله ورسوله ﷺ .

ويستغرقهما معنى الإسلام ، ومعنى العبادة التي هي : اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه ، قولا كان أو فعلا ، ظاهرا ، أو باطنا .

بل الدين كله داخل في معنى العبادة ، إذ الدين يتضمن معنى الخضوع والذل ... وإذا كانت العبادة هي الغاية الكبرى من خلق الخلق ، وأن الله سبحانه إنما خلق الخلق لعبادته فإن العبادة حق الله على العباد .

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِي** ﴾ { الذاريات : ٥٦ } .

---

(١) النهاية في غريب الحديث ٣ / ٢١٦ .

وكما أن العبادة خضوع وتعظيم ومحبة ، فإن الدعوة إلى الله تعالى أبلغ مظاهر التعظيم والمحبة .

وإذا كانت العبادة لا تتم إلا على دراية ومعرفة وبصيرة .

فإن الدعوة إلى الله كذلك .

قال الله تعالى : ﴿ **قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ { يوسف : ١٠٨ } .

والبصيرة تحتاج إلى منهج ، هذا المنهج أنزل الله – تعالى – به الكتب وأرسل به الرسل لتدريب الناس والسير في تطبيقه خطوات إلى الإمام ، وإلا فإن الوصول إلى فهم مراد الله منه ، والتوصل إلى كيفية العبادة ، والتطبيق دون إنزال الكتب وإرسال الرسل يؤدي ولابد إلى الخلط والابتداع والتضارب والتناقض .

بهذا تحددت مهمة الرسل وأنهم بهذا أعرف الخلق بالحق وأرحم الخلق بالخلق .

والدعاة هم القائمون مقامهم ، النواب عنهم ، قد صحت تبعيتهم للرسل ، فاشتد الفرح بهم ، كيف أن الله قد نصب من الأمة من يؤدي وظيفتهم ؟

فوائد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

❖ قاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هي القطب الأعظم في الدين الإسلامي ، والهدف الذي ابتعث له الله النبيين أجمعين ، ولو طوى بساطه وأهمل علمه وعمله لتعطلت النبوة ، واضمحلت الديانة وعمت الفترة ، وفشت

الضلالة ، وشاعت الجاهلية ، وانتشر الفساد ، واتسع الخرق، وخربت البلاد ، وهلك العباد ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد .

❖ هذه القاعدة أبلغ مظهر من مظاهر تعظيم الحق سبحانه وتعالى – إذ هو عبادة ، ولا أعظم من عبادته ، ودلالة الخلق عليه ، ألا ترى حالات الأنبياء والمرسلين ؟ فقد اشتغلوا بدلالة الخلق على الحق ، كما أن العبادة هي الغاية العظمى من خلق الخلق .

❖ هي أحد مقومات خيرية الأمة ، ولون من ألوان المسارعة إلى الخيرات والصلاح، وعوامل التمكين لدين الله – تعالى – في الأرض ، كما قرن ربنا التمكين بأركان الإسلام .

﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنْ الْمُنْكَرِ ﴾ { الحج : ٤١ } .

❖ هي أحد أهم أسباب النجاة في الدنيا والآخرة ، ومقوم بارز من مقومات النجاح ، والفلاح ، فالناس كل الناس في خسر إلا من كمل نفسه وعمل على تكميل غيره بوصيته له ، وأمره بالعلم والعمل .

﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾

﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ ﴾

{ آل عمران : ١٠٤ } .

❖ هي من أقوى الأساليب في مقاومة مظاهر الانحراف والابتداع ، ورد الأمة إلى الجادة وسبل الاستقامة . ومن ثم تمكينها من توحيد فكرها وصدق توجهها ، وتحصينها من الفكر الهدام ، ومقاومته كي لا يقر له قرار ، ويأخذ حق الوجود الشرعي فيصعب بالتالي خلعه بعد ذلك لتقادم زمانه وإلف الناس به .

قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه : " كيف أنتم إذا لبستكم فتنة يهرم فيها الكبير ، ويربو فيها الصغير ، ويتخذها الناس سنة إذا غيرت قالوا غيرت السنة " (١) .

❖ هي الطريق لوحدة المسلمين بما تثيره في النفس من شعور بواجبات الأخوة الإيمانية ، وتعاون على البر والتقوى ، وتحقيق الولاء لجماعة المسلمين ، وكلها معان تؤدي إلى الترابط والتوحد بين أبناء الأمة .

❖ إقامة الحجة على المعاندين والمخالفين ، وتنبيه الغافلين، وانتشال الغارقين ومن في طبعه التواء، وفي فطرته اعوجاج.

﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ .

{ الأعراف : ١٦٤ } .

﴿ رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لألا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ { النساء : ١٦٥ } .

❖ حماية الأرض من أن تتحول إلى بؤرة من الفساد

---

(١) سنن الدارمي ١ / ٦٤ .

والشر، فالشر إنما ينمو في غياب الخير وتوقف نمائه .

﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتْ الأَرْضُ﴾ { سورة البقرة : ٢٥١ } .

﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ { الحج : ٤٠ } .

❖ تحقيق التكامل بين أبناء الأمة ، فلا يذهب أحد إلى الاستمتاع بحريته استمتاعاً مطلقاً دون اعتبار للآخرين ، فحرية الفرد مقيدة بحرية غيره وتنتهي حيث تبدأ حرية غيره، وإلا تحولت الأرض إلى همجية وفوضى .

قال الله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾ { الأنفال : ٢٥ } .

أي أنها لا تختص بالظالم وحده ، بل تأخذ الظالم بظلمه، وغير الظالم بسكوته ورضاه .

﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ ﴾ { المائدة : ٧٨ ، ٧٩ } .

هذا التكامل والتكافل والتشابك بين مصالح الأمة ، الفردية والجماعية يصوره هذا الحديث النبوي : " مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا في سفينة ، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، وكان الذين في أسفلها إذا استقموا الماء مروا على من فوقهم، فقالوا : لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا ؟؟ فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا ، وإن أخذوا على أيديهم نجو

ونجوا جميعاً " [١] .

من كل ما تقدم نعلم أن قاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الضرورات البشرية ، والفرائض الدينية ، يترتب على إهمالها والتقصير في أسبابها من الأضرار والمخاطرة الكثيرة ، والتي منها :

❖ الهلاك الجماعي ... ثم يبعث الله الناس على نيابتهم .

هذا الهلاك الجماعي يتأكد عندما يكثر الخبث – الرديء في القول ، والفعل ، والاعتقاد .

قال الله تعالى : ﴿ **وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً** ﴾ { الأنفال : ٢٥ } .

المعنى أنها لا تختص بالظالمين ، بل تأخذهم وتأخذ غيرهم ممن لم يقع منهم ظلمٌ ، فإن شؤم الظلم يعم من تعاطاه ومن رضي به . هذا بظلمة ، وهذا برضاه وإقراره .

لما لاحظت أم المؤمنين السيدة زينب قلق النبي ، وفرزعه من نومه وهو يقول : "ويل للعرب من شر قد اقترب" قالت أم المؤمنين أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : " نعم إذا كثر الخبث " [٢] .

فيه دليل كما في الآية على أن الخير قد يهلك بهلاك الشرير إذا

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه ، شركة ٣ / ١٨٢ ، وشهادات ٣ / ٢٣٧ والترمذي في سننه ، فتن ٤ / ٤٧٠ ، وأحمد في مسنده ٤ / ٢٦٩ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ، فتن ٩ / ٦٠ ، ٧٦ ومسلم في صحيحه ، فتن ٤ / ٢٢٠٧ ، ٢٢٠٨ ، والترمذي في سننه ، فتن ٤ / ٤٧٩ ، ٤٨٠ ، وابن ماجه في سننه، فتن ٢ / ١٣٠٥ ، ومالك في الموطأ / ٧٠ ، وأحمد في مسنده ٦ / ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، والحميدي فيمسنده ١ / ١٤٨ .

لم يقم ويعمل على تغيير شره وخبثه .

كما فيه دليل على أن الهلاك قد يرفع عن الصالحين إذا كثر الصالحون .

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ { الإسراء : ١٦ }.

ولعل في ترجمة الإمام مالك للحديث ما يساعد على ذلك إذ قال: " باب : ما جاء في عذاب العامة بعمل الخاصة " (١) .

هذا الهلاك الجماعي دل عليه حديث آخر "إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه " (٢) .

فيه دليل على الأمر بتغيير المنكر ، وعدم إقراره بين جماعة المؤمنين وفيه أيضاً دلالة على أن درء العذاب الجماعي : بالعمل على المقاومة والتغيير ما أمكن .

قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنْ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ { الأعراف : ١٦٥ } .

فأنجى الله الناهين ، وكذا من كره الذنب وأما من قالوا : ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ ﴾ { الأعراف : ١٦٤}.

فالأكثرون من العلماء على أنهم نجوا أيضاً ؛ لأنهم كانوا كارهين للذنب وأنكروا بحسب قدرتهم (٣) .

---

(١) الموطأ / ٧٠ .

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه ، فتن ٢ / ١٣٢٧ ، وأحمد في مسنده ١ / ٢ ، ٥ ، ٦ .

(٣) الموطأ / ٧٠ .

إذا بدرجة الكره والإنكار يؤدي المرء ما عليه – إذا لم يستطع غيرهما ، وبشرط الإخلاص فيهما ، وهجر أماكن السوء .

حيث قرر أئمة السلف : " تهجر الأرض التي يصنع فيها المنكر جهاراً ولا يستقر فيها " .

" لا ينبغي الإقامة في أرض يكون العمل فيها بغير حق والسب للسلف " (١) .

وفي الحديث : "إن الله عز وجل لا يعذب العامة الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه ، فإن لم يفعلوا ذلك عذب الله الخاصة والعامة " (٢) .

❖ عدم إجابة الدعاء ...

ورفض إجابة الدعاء تعني رفض أشياء كثيرة جداً ، يصورها مقام الداعي ومنزلة الدعاء في الشرع الشريف .

والدعاء بحسب وروده في القرآن والسنة والدلالة اللغوية يحمل العديد من الأسرار ذات الدلالة العظمى .

فهو توحيد ، واستعانة ، وطلب ، وحمد ، وثناء ، وذكر ، واستغفار ، وهو عبادة ، وهو عماد الدين ونور السماوات والأرض ..

فإذا رفضه الله سبحانه ولم يقبله فكل هذا مرفوض مردود .

قال الله تعالى : ﴿ **قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ** ﴾

{ الفرقان : ٧٧ } .

---

(١) التذكرة / ٦١٢ .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ٤ / ١٩٢ ، وأبو داود في سننه ، ملاحم ٤ / ١٢٤ وإسناده حسن ، فتح الباري ١٣ / ٤ .

أى وزن لكم ؟ ما يصنع بكم ؟ أي مقدار لكم ؟ لولا دعاؤكم فالله قد خلقكم لهذا .

إن الدعاء أكرم شئ على الله عز وجل

والذى يدعو ربه بمقام كريم عزيز عنده سبحانه .

وتأمل هذا الحديث : "والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم " (١) .

ثم تدعونه ؟ فلا يستجاب مع أن الإجابة مؤكدة ، محققة ، وقد كان السلف لا يحملون للإجابة هما ، وعندهم أن الله ما فتح لسان عبد بمعذرة إلا وقد فتح له باباً من المغفرة .

والله تعالى يقول : ﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ** ﴾ { سورة البقرة : ١٨٦ } .

﴿ **وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ** ﴾ {غافر : ٦٠ } .

ومن عواقب التقصير في القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

۞ الاختلاف والتناحر وغلبه التحريش الشيطاني بين أفراد الأمة.

ولعل هذا هو سر النهي عن التفرق بعد الأمر بالدعوة إلى الخير.

قال الله تعالى : ﴿ **وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ**

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في سننه ، فتن ٤ / ٤٦٨ ، وأحمد في مسنده ٥ / ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٣٩١ من حديث حذيفة بن اليمان ، مرفوعاً .

بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ ﴾

{ آل عمران : ١٠٤ ، ١٠٥ } .

۞ كثرة الأزمات – الاجتماعية ، والاقتصادية ، والسياسة ، والخلقية ، والنفسية ... ومن ثم العمل على تغيير هوية الأمة وسلخها عن قيمها وصدق توجهاتها .

وتأمل صورة مجتمع خال من أهل الصلاح ، إنه التأمير لأهل الفساد ، والتمكين لأهل الباطل ومن ثم التعرض لغضب الله ، والخذلان والهزيمة ، وتمكين الأعداء من رقاب أبناء الأمة .

۞ إصابة الناس بحالة من موت الحس وموت الشعور بالثقة والاطمئنان إلى الغد ، وموت الأمن والأمان في نفوسهم والعجز عن تكوين رأي عام يحرس القيم والتوجهات النيلة .

وأخيراً ... فإن إهمال هذه القاعدة إهمال لمقامات الإسلام ومقاصده ، كلياته وجزئياته ... إهمال لكل شيء ، وفقد الأمة لكل شيء ... فماذا يمكن أن تحقق الأمة من كسب إذا هي فقدت الإسلام ؟

٤- أن تبني الأمة توجهها من جديد

على أساس من :

فقه الإسلام ، الحفاظ على اللغة العربية ، دراسة التاريخ .

ذلك : أن الله تعالى قد جعل للأمة إطارًا تتحرك فيه .

وخطأ يجب ألا تخرج عليه .

وحدد لها حدودًا يجب ألا تتعداها .

ودائرة تخطو داخلها من جهة إلى جهة ، ومن غاية إلى غاية .

وفي هذا كله من عوامل السعة والمرونة والقابلية للتطور والثبات ما يدفع الأمة إلى الإنطلاق نحو الغاية الكبرى وما يجعل شخصيتها تستعصي على التذويب وحدودها تتأبى على الضياع ، ومعالمها ترفض المحو .

فقه الإسلام .

ماذا يعني ؟

- أن نفهم الإسلام في ضوء الخصائص العامة له .
- وفي ضوء الضوابط والعوامل التي لا بد منها عند التعامل مع نصوصه .
- وفي ضوء عوامل السعة والدوران مع المصالح المنضبة بضوابط الشرع .
- وفي ضوء الفهم العملي للإسلام ، والتأكيد على أنه دين ودولة ، جاء ليحكم وليسود ، لا أن يتحول إلى ترف فكري وجدل عقيم ، ومراء لا ينتج شيئًا ، ولا يوصل إلى شيء.

- وفي ضو ءما كان عليه النبي ﷺ وصحابته الكرام " الأمر الأول ".
- وفي ضوء رعاية الأولويات عند التطبيق ، وتقديم ما حقه أن يقدم ، فيقدم الواجب على المندوب ، والفرض على السنة ، والمتفق عليه على المختلف فيه .
- وفي ضوء أخذه كله أخذًا شموليًا لا يترك منه شيء ولا يستغنى فيه عن شيء .
- وفي ضوء تقدير جهود الأئمة في خدمة الإسلام ، والتسليم لهم في الأمر المجمع عليه .
- وفي ضوء عدم الإنكار للأمر المختلف فيه _ إذ لا يؤمر به ولا ينهى عنه _ أو إنما ينكر المتفق عليه .
- وفي ضوء احترام التخصصات وإسناد كل أمر لأصحابه ، وأن كل علم يسأل عنه أهله ، ومن ثم لا يقبل قول قائل لا دليل عليه ، ولا يتصدر للفتوى إلا من كان متأهلًا مستجمعًا لشروطها .
- وفي ضوء الجمع بين الفقه والحديث والأصول واللغة .

أهمية فهم الإسلام في ضوء هذه الضوابط

أهمية الفهم عمومًا .

بداية فإن نعمة الفهم من أجل نعم الله على العبد ، ومعلم من معالم الخير والخيرية لقول النبي _ صلى الله عليه وسلم _ :- " من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين " (١) .

والفهم من الأمور الوهبية ، والمنح والعطايا الربانية ، وهو يعد من الأشياء الزائدة على النص من الكتاب والسنة ، كما أنه نور يقذفه الله تعالى في قلب العبد .

قال أبو جحيفة (٢) : " قلت لعلي _ رضي الله عنه _ هل عندكم كتاب ؟ قال : " لا إلا كتاب الله ، او فهم أعطيه رجل مسلم ، أو ما في هذه الصحيفة " (٣).

قال ابن حجر : " قال ابن المنير : فيه دليل على أنه كان عنده أشياء مكتوبة من الفقه المستنبط من كتاب الله وهو المراد بقوله : أو فهم أعطيه رجل مسلم ، والمراد بذكر الفهم : إثبات إمكان الزيادة على في الكتاب والسنة " (٤) .

وقال مالك : " ليس العلم بكثرة الرواية ولكن العلم نور يضعه الله في القلوب " (٥)

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، علم (٢٧/١) ، ومسلم في صحيحه (٨١٩/٢) . والبغوي في شرح السنة (٢٨٤/١٠) ، وقال : " هذا حديث متفق على صحته " .

(٢) وهب بن عبد الله السوائي ، له صحبة " ت ٧٤ هـ " له ترجمة في : تهذيب التهذيب (١٦٤/١١).

(٣) صحيح البخاري ، علم (٣٨/١) ، وديات (١٣/٩ ، ١٦) .

(٤) فتح الباري (٢٠٤/١) .

(٥) ترتيب المدارك (١٨٤/١) .

وهو فطنة يفهم بها من الكلام ما يقترن به من قول ، او فعل ، وهو كذلك هيئة للإنسان بها يتحقق ما يحسن .

ولأن العلم كما يقول مالك ليس بكثرة الرواية ، فقد قال مالك لابني أخته أبي بكر[١] وإسماعيل [٢] أبني أبي أويس : " أراكما تحبان هذا الشأن وتطلبانه ؟ يعني الحديث فيقولان : نعم ، قال : إن أحببتما أن تنفعا ، وينفع الله بكما ، فأقلا منه وتفقها " [٣].

وكان يقول : " أقلوا من هذه الأحاديث فإنها لا تصلح إلا لمن علم تأويلها ، كثير من هذه الأحاديث ضلالة ، لقد خرجت مني أحاديث وددت لو أني ضربت بكل حديث منها سوطين وأني لم أحدث به " .

وهذا معناه أنها ربما أورثت الإنسان حيرة وتلبسًا ، لذلك فإن عبد الله بن وهب [٤] المحدث المصري ، والذي لم يدون أحد العلم كما دونه حتى قال عنه أحمد: صحيح السماع ، يفصل السماع من العرض، والحديث من الحديث ، ما أصح حديث وأثبته .

ولما قيل لأحمد أنه كان يسيء الأخذ ، قال : قد كان ولكن نظرت في حديثه هو ما روى عن مشايخه وجدته صحيحا .

وقد بلغت مرويات ابن وهب وما حدث به مائة ألف حديث مع

---

(١) أبو بكر بن عبد الحميد بن عبد الله " ت ٢٠٢ هـ " له ترجمة في تهذيب التهذيب (١٨٨/٦) .

(٢) إسماعيل بن عبد الله بن أبي أويس " ت٢٢٦ هـ " له ترجمة في :الكامل (٣١٧/١)، تهذيب التهذيب (٢١٠/١) .

(٣) الفقيه والمتفقه (٨٠/٢) ، وترتيب المدارك (١٤٩/١) .

(٤) عبد الله بن وهب المصري " ١٢٥ -١٩٧" له ترجمة في : طبقات بن سعد (٥١٨/٧)، سير أعلام النبلاء (٢٢٣/٩) ، وتهذيب التهذيب (٣١٠/١) .

هذا يقول عن نفسه : " لقيت ثلاثمائة عالم وستين عالمًا ، ولولا مالك والليث لضللت في العلم .

وذلك بسب اختلاف الروايات ، وظنه أن كل حديث قابل للتطبيق والعمل به .

أو كما قال هو : " أكثرت من الحديث فحيرني ، فكنت أعرض ذلك على مالك والليث فيقولان لي : خذ هذا ودع هذا " [١] .

ولأن العلم ليس بكثرة الرواية فقد قال الثوري : " تفسير الحديث خير من سماعه".

وقال أبوعلي النيسابوري [٢] : " الفهم عندنا أجل من الحفظ " [٣].

ومن أجله فقد أورد الخطيب قال : " قيل لبعض الحكماء أن فلانًا جمع كتبًا كثيرة ، فقال : هل فهمه على قدر كتبه ؟ قيل : لا ، قال : ما صنع شيئًا ، ما تصنع البهيمة بالعلم " [٤] .

ولأهمية الفهم فقد قال أبو عاصم [٥] : " الرياسة في الدين بلا دراية رياسة نذلة [٦]

---

(١) ترتيب المدارك (٤٢٧/١) .

(٢) الحسين بن علي بن يزيد ،الإمام المحدث " ٢٧٧ - ٣٤٩ هـ " له ترجمة في : تذكرة الحفاظ (٧٧٦/٢) .

(٣) تذكرة الحفاظ (٧٧٦/٢) .

(٤) سير أعلام النبلاء (٤٩٦/١١) ، وأعلام الموقعين (٤٤/١) .

(٥) أبو عاصم النبيل بن الضحاك بن مخلد " ١٢٢ -٢١٤ هـ " له ترجمة في : طبقات ابن سعد (٣٤٥/٧) ، وتاريخ بغداد (٧٧/١٤) ، سير أعلام النبلاء (٧١/١١) . وفيات الأعيان (١٣٩/٦) .

(٦) الجامع لأخلاق الراوي (١٧٤/٢) .

يدعو إلى أهمية الجمع بين الرواية والحفظ ، وبين الدراية والفهم، وأن يضم العالم إلى خبرته الحديثية خبرة فقهية في معرفة المقبول من المردود ، ما يصلح العمل به وما لا يصلح ، فإن العلم هو الفهم والبصر .

أورد الخطيب أنه قيل ليحيى بن معين [١] : " أيفتي الرجل من مائة ألف حديث ؟ قال : لا ، قلت : ومن مائتي ألف ، قال : لا ، قلت: ثلاثمائة ألف ، قال : لا ، قلت : خمسمائة ألف ، قال : أرجو ".

قال الخطيب : " وليس يكفيه إذا نصب نفسه للفتيا أن يجمع في الكتب ما ذكره يحيى دون معرفته به ، ونظره فيه وإتقانه له ، إن العلم هو الفهم والدراية وليس الإكثار والتوسع في الرواية ، ولولا ضروة التأمل والتبصر لساغ لكل من جمع جملة من الأحاديث أن يجعل نفسه قاضيًا وحاكما " [٢].

ولأهمية الفهم وخاصة لمن يتصدر للحكم والفتوى ، فقد قال ابن القيم بعد إيراده لشروط المفتي ، وأن من الشروط معرفة الناس : وكيف أن هذا الشرط من الأهمية ، وهو أصل عظيم وإلا خلط عليه الأمر ، وتصور له الظالم بصورة المظلوم ، ودخل عليه أمر المكر والحيل ، وهو لا يميز هذا ولا ذاك .

قال : " بل ينبغي أن يكون فقيهًا في معرفة مكر الناس ، وخداعهم واحتيالهم وعوائدهم ؛ فإن الفتوى تتغير بتغير الزمان ،

---

(١) يحيى بن معين بن عون : الإمام سيد الحفاظ " ١٥٨ -٢٣٣ هـ " له ترجمة في : طبقات ابن سعد (٣٥٤/٧) ، تاريخ بغداد (١٤ /٧٧) ، سير أعلام النبلاء (٧١/١١) ، وفيات الأعيان (١٣٩/٦) .

(٢) الجامع لأخلاق الراوي (١٧٤/٢) .

والمكان والعوائد والأحوال وذلك كله في دين الله تعالى " .

و قال : " الفهم الصحيح نعمة ، وصحة الفهم وحسن القصد من أعظم النعم التي أنعم الله بها على عبده ، بل ما أعطى أحد عطاء بعد الإسلام ، أفضل ولا أجل منهما ، بل هما ساقا الإسلام ، وقيامه عليهما ، وبهما يأمن العبد طريق المغضوب عليهم الذين فسدت قصودهم ، وطريق الضالين الذين فسدت فهومهم ، ويصير من المنعم عليهم الذين حسنت أفهامهم وقصودهم وهم أهل الصراط المستقيم الذين أمرنا أن نسأل الله أن يهدينا صراطهم في كل صلاة، وصحة الفهم نور يقذفه الله في قلب العبد يميز به بين الصحيح والفاسد والحق والباطل ، والهدى والضلال ، والغي والرشاد ، ويمده حسن القصد ، وتحري الحق ، وتقوى الرب في السر والعلانية ، ويقطع مادته اتباع الهوى ، وإيثار الدنيا ، وطلب محمدة الخلق ، وترك التقوى " .

ثم ذكر أن الحاكم والمفتي لا يتمكنان من الفتوى إلا بالفهم وأن العالم من يتوصل بمعرفة الواقع والتفقه فيه إلى معرفة حكم الله ورسوله ، كما توصل شاهد يوسف بشق القميص من دبر إلى معرفة براءته ، وكما توصل سليمان _ عليه السلام _ بقوله : : ائتوني بالسكين حتى أشق الولد بينكما " إلى معرفة عين الأم ، وكما توصل أمير المؤمنين علي بن أبى طالب ﷺ بقوله للمرأة التي حملت كتاب حاطب لما أنكرته لتخرجن الكتاب أو لنجردنك حتى أخرج الكتاب منها .

ومن تأمل الشريعة وقضايا الصحابة وجدها طافحة بهذا ، ومن سلك غير هذا أضاع على الناس حقوقهم [١] .

---

(١) أعلام الموقعين (١/٨٧ ، ٨٨) .

هذا في الفهم ، فإذا ما وظفه صاحبه في التعامل مع قضايا الإسلام وأحكامه فقد أمكن أن نأمن من التأويلات الفاسدة وكل ما من شأنه أن يبعدنا عن أمور الإسلام ، ومن ثم تتوحد الجهود والتوجهات كما تتم الاستفادة الطيبة من جهود العلماء العاملين .

الحفاظ اللغة العربية

فاللغة العربية وسيلة الارتكاز وحدة الفكر ، والحفاظ عليها حفاظ على الهوية الثقافية للأمة .

كما أنها وسيلة التعبير عن التطور والإبقاء على معالم النهضة الحضارية ، وسبيل التواصل بين الشعوب ، وأحد دعائم البناء الفكري بعد فقه الإسلام ، والطريق الموصل إلى فقهه ، فلا فقه بدون لغة . وهى أفصح اللغات وألينها وأوسعها ، هي شعار الإسلام وخصيصة المجتمع ، بها تميزت هوية الأمة وثبتت شخصيتها .

واللغة العربية تثبت العقل وتزيد من مروءة المرء .

قال ابن تيمية : " اعتياد اللغة يؤثر في العقل والخلق والدين تأثيرًا قويًا بينًا ، ويؤثر أيضًا في مشابهة صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين ، ومشابهتهم تزيد العقل والدين والخلق " (١) .

واللغة العربية من السعة والشمول بحيث لا يحيط بها أحد ولا يذهب منها شيء على مجموع الأمة .

قال الشافعي رحمه الله : " لسان العرب أوسع الألسنة مذهبا وأكثرها ألفاظا ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي ، ولكنه لا يذهب منه شيء على عامتها حتى لا يكون موجودًا فيها من يعرفه،

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم / ٢٠٧ .

والعلم به عند العرب كالعلم بالسنة عند أهل الفقه : لا نعلم رجلًا جمع السنن فلم يذهب منها عليه شيء [١] .

والإمام الشافعي بهذا يذهب إلى أن اللسان العربي واسع سعة السنة يصعب أن يحيط به فرد غير نبي . هذه السعة مقصودة في اللسان ليتم التطابق والتوافق بينه وبين سعة الشريعة ومرونتها ، ولأن اللسان كذلك فقد اختاره الله تعالى لسان خاتم رسله ورسالاته ، فتم التطابق كذلك في الختام ، والتوافق في التكامل والشمول .

واللغة العربية هي لغة الوحي الإلهي الأخير ، الباقي على ظهر الأرض ، ومن ثم يجب أن تكون عالمية وأن تبقى تعاليمها وتعميمها من الواجبات على المجامع العلمية والمعاهد المتخصصة ، لأنها إذا ضاعت وانفرط عقدها ، ضاع الشرع والقرآن والسنة ، ونبتت أجيال أعجمية لا تفهم إن بقي شيء تقرأه .

عروبة القرآن :

عروبة القرآن بالنص القاطع في غير موضع منه :

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ { يوسف : ٢} .

﴿ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ﴾ { الرعد : ٣٧} .

﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنْ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ { الشعراء : ١٩٢-١٩٥} .

---

(١) الرسالة / ٤٢ .

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ { الشورى : ٧} .

قال الشافعي : " فأقام حجته بأن كتابه عربي في كل آية ذكرناها، ثم أكد ذلك بأن نفى عنه _ جل ثناؤه _ كل لسان غير لسان العرب في آيتين من كتابه : فقال تبارك وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ { النحل : ١٠٣} .

وقال : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ﴾ { فصلت : ٤٤} .

قال الشافعي : **وعرفنا نعمة ما خصنا به من مكانة فقال : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾ .**

{ التوبة : ١٢٨ } .

فعلى كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده حتى يشهد به أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا عبده ورسوله ، ويتلو به كتاب الله ... (١) .

ومعنى نزول القرآن بلسان عربي لا عجمة فيه : أنه ليس فيه شيء من الألفاظ والمعاني إلا وهو جار على ما اعتاده أهل العربية .

إن من أراد تفهمه فسبيله إلى ذلك لسان العرب ، فطلب فهمه إنما يكون منه هذا الطريق خاصة ، كما أن لغة الأعاجم لا تفهم إلا من جانب لسانهم .

---

(١) الرسالة (٤٧ -٤٨) .

قال ابن تيمية بعد إيراده لدرجات أذكار الصلاة ، وأن أعلاها القرآن ، ثم الذكر الواجب غير القرآن ، ثم الذكر غير الواجب من دعاء أو تسبيح .

فأما القرآن فلا يقرأه بغير العربية سواء قدر عليه أو لم يقدر عند الجمهور ، وهو الصواب الذي لا ريب فيه ، بل قال غير واحد : إنه يمتنع أن يترجم سورة أو ما يقوم به الإعجاز ... (١) .

ويترتب على هذا أيضًا : كراهة أن يتعود المرء النطق بغير العربية .

نقل ابن تيمية عن غير واحد من السلف النهي عن رطانة الأعاجم ، قال عمر _ رضي الله عنه _ : " إياكم ورطانة الأعاجم ، و أن تدخلوا على المشركين يوم أعيادهم في كنائسهم " .

" لا تتعلموا رطانة الأعاجم ، ولا تدخلوا على المشركين في كنائسهم يوم عيدهم فإن السخطة تنزل عليهم " (٢) .

وكما أن القرآن عربي وطلب فهمه من جهة اللسان العربي ، فإن الشريعة كذلك عربية لا مدخل فيها للسان الأعجمي .

بل قال ابن تيمية : فإن نفس اللغة من العربية ، ومعرفتها فرض واجب ، فإن فهم الكتاب والسنة فرض ، ولا يفهم إلا بفهم اللغة العربية ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

ثم منها : ما هو واجب على الأعيان ، ومنها : ما هو واجب على الكفاية ، وهذا معنى ما رواه .. قال : " كتب عمر إلى أبي

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (٢٠٣) .

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (٢٠٥) .

موسى الأشعري رضي الله عنهما : أما بعد فتفقهوا في السنة ، وتفقهوا في العربية ، وأعربوا القرآن فإنه عربي " .

وفي حديث آخر عن عمر _ رضي الله عنه _ أنه قال : " تعلموا العربية ، فإنها من دينكم ، وتعلموا الفرائض فأنها من دينكم " .

وهذا الذي أمر به عمر _ رضي الله عنه _ من فقه العربية ، وفقه الشريعة يجمع ما يحتاج إليه ، لأن الدين فقه أقوال و أعمال ، ففقه العربية هو الطريق إلى فقه أقواله ، و فقه السنة هو الطريق إلى فقه أعماله [١] .

وقال الشاطبي : ... على الناظر في الشريعة والمتكلم فيها أصولًا وفروعًا ، أمران:

أحدهما : ألا يتكلم في شيء حتي يكون عربيًا ، أو كالعربي في كونه عارفًا بلسان العرب ، بالغًا فيه مبالغ العرب ، أو مبالغ الأئمة المتقدمين ...

الثاني : أنه إذا أشكل عليه في الكتاب والسنة لفظ أو معنى فلا يقدم على القول فيه دون أن يستظهر بغيره ممن له علم بالعربية ، فقد يكون إمامًا فيها ولكنه يخفى عليه الأمر في بعض الأوقات ، فالأولى في حقه الاحتياط [٢].

إذًا من قال في الشريعة دون علم بلغتها فمن باب التكلف قال ، وقد نهينا عن التكلف ، قال الله تعالى : ﴿ **قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنْ الْمُتَكَلِّفِينَ** ﴾ { ص : ٨٦ } .

---

(١) نفسه (٢٠٧) .

(٢) الاعتصام (٢/٢٩٧-٢٩٩) .

" ومن تكلف ما جهل ولم تثبته معرفته : كانت موافقته للصواب إن وافقه من حيث لا يعرفه غير محمودة والله أعلم ، وكان بخطئه غير معذور ، وإذا ما نطق فيما لا يحيطه علمه بالفرق بين الخطأ والصواب " (١) .

فوجب التمهر في اللغة حتى لا يقول على الله ما لم يقل ، وفي ذلك هلكة .

وقد خرج ابن وهب عن الحسن أنه قيل له : أرأيت الرجل يتعلم العربية يقيم بها لسانه ، ويصلح بها منطقه ؟ قال : نعم فليتعلمها ، فإن الرجل يقرأ فيعيا بوجهها فيهلك .

وعن الحسن قال : " أهلكتهم العجمة، يتأولون على غير تأويله " (٢).

عروبة النبي محمد ﷺ :

أكدها القرآن الكريم في أكثر من موطن .

منها : ما كان استجابة لخليل الرحمن إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام ، قال الله : ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ { البقرة : ١٢٩ } .

فكانت الاستجابة في رسالة الرسول ﷺ في جزيرة العرب .

قال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ { آل عمران : ١٦٣}.

---

(١) الرسالة (٥٣) .

(٢) الاعتصام (١٩٩/٢)

ومنها ما أكدها التاريخ من إرسال كل نبي في قومه خاصة ، وبلسانهم قال الله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ { إبراهيم : ٤}.

وقد كان هذا الأمر شائعًا مستفيضًا ، يعرفه العام والخاص .

من ذلك ما ثبت في الصحاح والسنن من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، في قصة أبي سفيان مع هرقل وما كان بينهما من حوار ، جاء فيه – قال أبو سفيان : فكان أول ما سألني عنه أن قال: كيف نسبه فيكم ؟ قلت : هو فينا ذو نسب قال : فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله ؟ قلت : لا ... قال هرقل للترجمان : قل له سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب ، فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها (١) .

ومنها : أن القرآن قد أبان عن مكانه وقومه ، قال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ { التوبة : ١٢٨ } ، ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ ﴾ { الجمعة : ٢} ، ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ {الشعراء : ٢١٤ } .

ولا يغيب عنك ما للنشأة من أثر في اكتساب المنطق اللغة ، وقد نشأ النبي ﷺ وتقلب في أفصح القبائل وأخلصها منطقاً .

" فكانت هذه البلاغة الإنسانية التي سجدت الأفكار لآيتها

---

(١) جزء من حديث طويل أخرجه البخاري في عدة أماكن من صحيحه ، منها في كتاب بدء الوحي ١ / ٥ ، وفي كتاب التفسير : تفسير سورة آل عمران ٦ / ٤٣ من حديث ابن عباس ، واللفظ له ، وأخرجه مسلم في الصحيح ، كتاب الجهاد ، باب : كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام ٣ / ١٣٩٣ ، وأحمد في مسنده ١ / ٦٦٢ ، كلهم من حديث ابن عباس .

وحسرت العقول دون غايتها ، لم تصنع من الأحكام كأنها مصنوعة ، ولم يتكلف لها وهي على السهولة بعيدة ممنوعة .

ألفاظ النبوة يعمرها قلب متصل بجلال خالقه ، ويصقلها لسان نزل عليه القرآن بحقائقه ، فهي إن لم تكن من الوحي ولكنها جاءت من سبيله وإن لم يكن لها فيه دليل فقد كانت هي من دليله محكمة الفصول ، حتى ليس فيها كلمة مفصولة ، هي في اختصارها وإفادتها نبض قلب يتكلم ، وإنما هي في سموها وإجادتها مظهر من خواطره صلى الله عليه وسلم [١] " .

وأخيراً . فأنت أمام قرآن عربي ، تابع لنبي عربي ، وفي بيئة عربية فحقق الفهم والعمل ، وأحسن الاقتداء ، والتأسي ، تكن أولى الناس بالفضل ، فأولى الناس بالفضل في اللسان ، من لسانه لسان النبي صلى الله عليه وسلم ولا يجوز والله أعلم – أن يكون أهل لسانه اتباعاً لأهل لسان غير لسانه في حرف واحد ، بل كل لسان تبع للسانه، وكل أهل دين قبله فعليهم اتباع دينه [٢] .

دراسة التاريخ :

مفهوم التاريخ :

تحقيق منهج الله في الأرض ، والإيمان بأن الله قد وضع نظاماً عملياً واقعياً هو مصدر سعادة البشر إذا صاروا بمقتضاه ولم يتنكبوه إلى أنظمة أخرى يضعونها ويشقوا بها ، وقد جاءكم هذا المنهج ليصوغوا واقع الأرض في إطاره .

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية / ٢٧٩ .

(٢) الرسالة / ٤٦ .

والتاريخ في نظر المسلم : سجل المحاولة البشرية الدائمة من المؤمنين لتحقيق منهج الله في الأرض [١] .

أو هو : مستودع الأخطاء الإنسانية وصوابها ، وضلالها وهداها وما جنت في عواقبها من خير أو شر [٢] .

والتاريخ عند المسلم ليس ماضياً فقط ، بل هو حاضر وواقع كذلك .

وهو في القرآن والسنة له مكانته العظيمة ، ومساحته الواسعة الفسيحة التي لا تكاد تخلو سورة من سور القرآن من عرض لواقعة تاريخية ، أو حديث عن مسألة تاريخية : إلا أنه لا يمثل توجهاً صوب الماضي لتحقيق السيطرة على جزئياته وتفاصيله ، إنما لتوجيه الأنظار إلى مؤشراته الرئيسية وقوانينه الفعالة ، إلى السنن والنواميس التي يعمل من خلالها .. إلى المصائر التي تنساق إليها الوقائع والأحداث وفق هذه المجموعة من الشروط أو تلك [٣] .

معنى هذا – أن التعرف إلى الماضي حتمية ندرك من خلالها أن ما جرى ويجري من أحداث على الأرض منذ بدء الخلق إنما هو قدر مقدور ، وعليه فإن معرفة الماضي نافذة جيدة للإطلال على فعل الله وصنعه وقدره الكائن في الناس والاستضاءة به إلى كشف المستقبل وأن ما حدث يمكن أن يحدث ، فالنظير يأخذ حكم نظيره ، كذلك يرد القرآن الناس إلى الماضي لتجاوز مراحل الخطأ والهوان ، والتخبط في السلوك والتطبيق ، هذه المراحل التي قادت الأمة وتقودها الآن

---

(١) شبهات التغريب / ٧٠ .

(٢) تذكرة الدعاة / ٤٥٩ .

(٣) حول إعادة كتابة التاريخ الإسلامي / ٨٤ بتصرف .

إلى الهاوية والانحدار ، قال الله تعالى : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ * هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ * وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ { آل عمران ١٣٧ – ١٣٩ } .

والقرآن هنا يرد المسلمين إلى سنن الله في الأرض ، يردهم إلى الأصول التي تجري وفقها الأمور ، فهم ليسوا بدعاً في الحياة ، فالنواميس التي تحكم الحياة جارية لا تختلف ، والأمور لا تمضي جزافاً ، إنما هي تتبع هذه النواميس ، فإذا هم درسوها وأدركوا مغازيها تكشفت لهم الحكمة من وراء الأحداث ، وتبينت لهم الأهداف من وراء الواقع ، واطمأنوا إلى ثبات النظام الذي تتبعه واستشرفوا خط السير على ضوء ما كان في ماضي الطريق ، ولم يعتمدوا على مجرد كونهم مسلمين لينالوا النصر والتمكين بدون الأخذ بأسباب النصر [١] .

كذلك فإن التاريخ واقع حاضر ماثل للعيان ، يعرض الهدى والضلال ، وما يترتب عليهما على صفحات الواقع المشاهد الملموس، يتأمله المرء ويدركه ويراه ويسمعه فيعتبر إن كان في القلب حياة ، هذا العرض إنما يتم على صفحات وهو أبلغ من عرضه على صفحات الكتب .

---

(١) في ظلال القرآن ٤ / ٤٧٨ .

أهمية الوعي التاريخي في تحقيق وحدة الأمة المنهجية

تتضح أهمية الوعي التاريخي من خلال رد القرآن الأمة إلى النظر في آثار المتقدمين ، والتعرف إلى القانون الذي يحكم ، ويسير عجلة الزمن بمقتضاه ، والسنن التي لا تختلف ، ولا تجامل ، وأن ما يجري على الشيء يجرى على مثيله ، وأن النتيجة بنت المقدمة ، والجزاء من جنس العمل ...

فإذا أمكن اتخاذ التاريخ ميداناً للدراسة والاعتبار بأحوال من سبق وتجارب المتقدمين لاستخلاص القيم والقوانين التي لا غنى للأمة عنها ، ولا حياة لها بدونها ، ومن ثم برمجة الحاضر والمستقبل على هداها أمكن أمكن الاستفادة منه في استعادة معطيات الماضي وإشراقاته وجعلها أكثر إيجابية وقدرة على الإفادة في تعزيز موضع أقدام الأمة ، وتمكينها من التوجه صوب مستقبل أكثر إشراقاً وحيوية.

وفي المقابل يتوجب علينا الابتعاد عن المزالق المتلفة التي أودت بحياة كثير من الأمم والشعوب .

التعرف إلى فترات التقدم والازدهار والرقى تلك التي ساد فيها الإسلام فكراً وتطبيقاً وبلغ القمة ، والنظر في المعالم الحضارية لتلك المرحلة ، والوثبة الفسيحة الهائلة لها ، تلك التي حولت العالم وغيرت معالمه الجغرافية ، إذ امتدت إلى ما وراءها .

ثم النظر فيما أعقب تلكم الفترات من انحدار عن القمة ، والحد الفاصل بين العهدين ، وأسباب كل ، إلى هذه النتيجة ، لإصلاح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها .

إلى الأهداف التي يريدها الإسلام ، إلى إبراز الفروق الجادة بين

الاتجاهات في حالة الصعود ، والهبوط ، إلى النظر في أسباب التمكين والقوة ، وأسباب الدمار والاندثار والضعف ...

إن عصمة الأمة وتوحدها في الاستمساك بحبل الله تعالى ، والعيش في ظلال الجماعة ، في فقه الإسلام ، في إحياء فقه الدعوة إلى الله تعالى ، والحفاظ على اللغة العربية .

إنه ما من يوم يمر إلا ويؤكد هذه الحقيقة : إن طريق العزة والقوة والتخلص من الفساد والطغيان والتفكك والتخلف ... طريق الإسلام .

وتتضح الأهمية كذلك إذا ما عرفنا أن إيجاد الوعي التاريخي له أكثر من مبرر لمصلحة الحقائق التي يراد تذويبها وطمس معالمها .

ومن الحقائق أن فترات ضعف الأمة يجب ألا تحسب على الإسلام ولا تحمل عليه ، وإنما يجب إخراجها منه فما كانت لتكون إلا بسبب بعد الأمة عنه ، عقيدة وشريعة .

ومن الحقائق أن أمة العقيدة لا تموت كما تموت الأمم التاريخية، ولا تدول كما تدال الدول التي تنشئها الشعوب .

" وأمة العقيدة لا تقوم على شعب بعينه ، وإنما على العقيدة وهي عنصر له صفة الدوام ، وهو فارق يجعل الأمة خاضعة لسنة أخرى غير السنن التي تجري على الأمم الجاهلية ويجعل مصيرها غير مصير هؤلاء [١] .

وتاريخ الأمة وإن كان يمثل هبوطاً مستمراً – إلا أنه لم ينته ولو كان مقدرا له أن ينتهي لكان ذلك خلال فترات الضعف والضربات

---

(١) واقعنا المعاصر / ١١٤ بتصرف .

المتلاحقة التي لم تتوقف بعد ؟

إن تاريخ الإسلام هو تاريخ صراع متنوع طويل المدى عميق النفس بين شعوب الإسلام وبين الخصوم ... إنه ما من أمة في العالم تعرضت لهذا القدر من الهجمات العنيفة المتلاحقة التي كانت تضرب الشاطئ الإسلامي كالبحر العاتي ... موجة إثر موجة ... دون أن تترك للمسلمين الفترة الزمنية الكافية لكي يلموا أشتاتهم ويلتقطوا أنفاسهم ، ويستجمعوا قواهم .

الوثنية العربية .. الفرس .. البيزنطيون .. الصليبيون .. المغول .. الأسبان .. قوي الاستعمار القديم ثم الحديث .. الصهاينة .. وأخيراً قوي الوفاق الدولي الذي يسعى لكي يطبق على عالم الإسلام بكماشته العاتية .. (١) .

ومن الحقائق إثبات الدور الحضاري الذي أداه الإسلام وأنعم به على الإنسانية في مختلف العلوم والفنون والآداب ، وهو دور بارز لا ينكره إلا جاحد .

" كلما أمعنا في درس حضارة العرب وكتبهم العلمية ، واختراعاتهم وفنونهم ظهرت لنا حقائق جيدة جديدة وآفاق واسعة ولسرعان ما رأينا أن العرب أصحاب الفضل في معرفة القرون الوسطى لعلوم الأقدمين ، وأن جامعات الغرب لم تعرف لها مدة خمسة قرون مورداً علمياً إلا مؤلفاتهم ، وإنهم الذين مدنوا أوروبا مادة وعقلاً وأخلاقاً ، وتأثير العرب عظيم في الغرب ، وهو في الشرق أشد وأقوى " (٢) .

---

(١) حول إعادة كتابة التاريخ الإسلامي / ٨٠ .

(٢) حول إعادة تشكيل العقل السليم / ٧٠ نقلاً عن كتاب حضارة العرب / ٢٦ .

إن الإسلام قد غير مسيرة الإنسانية ، وهو بعقيدته قد صاغ الناس صياغة جديدة بدءً من العادات والتقاليد وانتهاء بالعلوم المختلفة، وصنع عباقرة – كانوا من أعظم مآثره ، حولوا نظام الكون إلى حيث أرادوا .

والمجال لا يتسع لاستعراض ملامح هؤلاء الرجال إلا أن المقطوع به أن الإيمان يصنع العجائب ، ويفجر قوي النفس ، وطاقاتها المكنونة .

" وإن الإسلام كنظرية قدير في أي لحظة تتوفر فيها النية المخلصة والإيمان الصادق ، والالتزام المسئول ، والذكاء الواعي ، على التماس واقع الحركة التاريخية وصياغتها ، وإعادة صياغتها ، على ضوء معطيات الإسلام كتاباً وسنة واجتهاداً ورصيدا وتشريعاً ، وعلى أن الجماهير الإسلامية ، مهما صدت عن الاتصال المباشر بموارد فكرها وعقيدتها وتاريخها ، فإنها تظل تحمل في عقولها وقلوبها ووجدانها ذلك التواصل الدائم ، والتناغم العميق مع هذا الدين الذي كرمها الله ورسوله به ، والذي لن تجد معه في أي بديل قد يجيء من هنا أو يؤتى به من هناك إلا التغرب والتمزق والانقطاع [١].

إن منطق الإسلام هو الغالب دائماً ، لأنه الحق – ومنطق العقيدة هو الراجح دائماً لأنه الحق ، ومنطق الحق هو الباقي دائماً لأن الله هو الحق المبين .

---

(١) حول إعادة كتابة التاريخ الإسلامي / ١١١ .

الخاتمة ...

في نهاية هذا البحث ماذا نريد ؟

نريد أن نعي هذه الحقائق ...

- أن السنة فيها إجابات شافية لكل ما يطرأ على عقل المسلم من تساؤلات ، وحل لكل ما يعتريه من مشكلات .
- للسنة دورها الأصيل في بناء العقل المسلم وصياغته وفق موازين قوية سليمة تضمن له الفوز والسعادة في الحياتين ، وفي سبيل ذلك :

أكدت السنة على جملة من الأمور ضماناً لصيانة المنهج ومنها :

- العيش في ظلال الجماعة المسلمة ، فالجماعة هي الإسلام كله ، والإسلام هو الجماعة ، وهي أساس دعوة الإسلام ومنطلقه .
- إن الجماعة المسلمة فريضة شرعية ، وضرورة بشرية اجتماعية وسنة كونية .
- الاعتصام بحبل الله تعالى – تأمير الكتاب والسنة ، والاعتصام بهما – تجنباً للخطأ والبعد عن الزلل والابتداع ، ولما في الأخذ والاستمساك بهما من خير وفير .
- إحياء فقه الدعوة ، وتكوين رأي عام حر تكون مهمته حراسة الدين ، ومقاومة الجاهلية مقاومة جادة فإما أن ترحل بعيداً إلى غير رجعة ، وإما أن تثوب إلى قواعدها الربانية .

- ❖ أن تبني الأمة فكرها من جديد على أساس من فقه الإسلام فقهاً علمياً ضمن الضوابط الشرعية .
- ❖ الحفاظ على اللغة العربية ، فهي وعاء الإسلام .
- ❖ ودراسة التاريخ ، فالتاريخ تفصيل لكل شيء .

إن أمة الإسلام ما تزال قادرة على بلوغ غاياتها وتحقيق آمالها..

إنها أمة صاحبة عقيدة ، وأمة العقيدة لن تموت ...

والأمل في الله كبير أن يعزم لها على الرشد ، وأن يحقق لها الخير ، وأن يعيد لها وزنها وثقلها في الوجود .

﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ { إبراهيم : ٣٩ } .

دكتور

عبد الله شعبان علي